فقيدُ المعروفِ ورَجُلُ الاقتصادِ

د. سعودُ بنُ محمدٍ الربيعــه
رَحِمَه اللهُ تعالى

إعداد

بدر أنور إبراهيم العنجري

ORCID: 0009-0002-6856-8287

❖ **عضو هيئة التدريب** بكلية التربية الأساسية، مركز التربية العملية – دراسات إسلامية، في الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب، بدولة الكويت.

❖ **نشر له**: كتاب «ملامح أهل الحديث: محاضرات في تصحيح المفاهيم حول المنهج السلفي، للشيخ عبدالله بن خلف السبت ﷾»، جمع وعناية وتنسيق. وكذلك «كشاف الرسائل والبحوث الحنبلية» نشر في مجلة الفقه الحنبلي وأصوله، في عدديها الأول والثاني.

❖ **البلد**: دولة الكويت

❖ **طريقة التواصل**: ba.alanjeri@paaet.edu.kw

doi: 10.63312/2439-004-007-008

فقيدُ المعروفِ ورَجُلُ الاقتصادِ

د. سعودُ بنُ محمدٍ الربيعــه رَحِمَه اللهِ تعالى

الملخص

عنوان البحث: فقيد المعروف ورجل الاقتصاد: د. سعود الربيعه رحمه الله.

الباحث: بدر أنور إبراهيم العنجري

مُعرِّف هُوِيَّةِ الباحث (Orcid ID): 0009-0002-6856-8287

الموضوع: تناول المقال جانبًا من سيرة حياة الفقيد الراحل الشيخ الدكتور سعود بن محمد الربيعه رحمه الله، في مجالات عمله الخيري والدعوي والعلمي، مع استعراض بعضًا من آراءه الفقهية المتصلة بالمعاملات المالية المعاصرة -والتي كانت مجال تخصصه- ومن خلال رسالتيه في الماجستير والدكتوراه.

الهدف: إبراز جوانب مضيئة من حياة الفقيد، للتأسي به في خصاله الطيبة التي شاهدها الناس، ومحاولةً لنشر آراءه الفقهية في المعاملات والبيوع المعاصرة.

الكلمات المفتاحية: المعاملات المالية، سعود الربيعه، سيرة ذاتية.

Abstract

Title: The Late Philanthropist and Economist, Dr. Sa'ūd al-Rubay'ah

Researcher: Bader Anwar Ibrāhīm al-'Anjarī

ORCID ID: 0009-0002-6856-8287

Subject: This article examines selected aspects of the life and legacy of the late Shaykh Dr. Saud bin Muḥammad al-Rubayyiʿah (may Allah have mercy on him), focusing on his charitable, daʿwah (religious outreach), and academic contributions. It also reviews a number of his fiqhī (jurisprudential) views concerning contemporary financial transactions (al-muʿāmalāt al-māliyyah al-muʿāṣirah), which were his field of specialization, through his master's and doctoral dissertations.

Objective of the Study: To highlight illuminating aspects of the deceased scholar's life as a model of noble character, and to help disseminate his juristic opinions on contemporary transactions and sales.

Keywords: Financial transactions, Saud al-Rubayyiʿah, biography.

doi: 10.63312/2439-004-007-008

فقيدُ المعروفِ ورَجُلُ الاقتصادِ

د. سعودُ بنُ محمدٍ الربيعــه رَحِمَه اللهُ تعالى

الحمدُ للهِ وحدَه، والصلاةُ والسلامُ على مَن لا نبيَّ بعدَه، سيِّدِنا محمدِ بنِ عبدِ اللهِ، وعلى آلِهِ وأتباعِهِ الذين ساروا على هَدْيِهِ، وتَمَسَّكُوا بعَهْدِهِ، وبعدُ.

فقد مَضَتْ مشيئةُ اللهِ -ﷻ- وسَبَقَ قضاؤُه أنْ تُقبَضَ رُوحُ عبدِهِ **سعودٍ الربيعه** رئيسِ تحريرِ هذه المجلَّة المُبارَكةِ -مجلَّة الفِقهِ الحنبليِّ وأُصولِهِ- وهي تخطو وتسيرُ في سنواتها الأُولى، راجينَ مِن المَوْلَى المَنَّانِ الكريمِ أنْ تكونَ مِن ثمراتِ عطائِهِ مع إخوانِهِ المشايخِ والدكاترةِ الفُضَلاءِ، وأنْ يَجزِيَه عَنَّا خيرَ الجزاء.

وإنَّه مِن بابِ الوفاء، ورغبةً مِن أعضاء هيئة التحريرِ في أنْ نَستَذكِرَ شيئًا مِن مآثِره ونُبَذًا مِن سِيرَتِهِ -رحمه الله- **ليس رثاءً بل توثيقًا لتجربةٍ إنسانيَّةٍ وعلميَّةٍ، تستحقُّ أنْ تُستحضَرَ نموذجًا يُحتذَى**، في زمنٍ تشتدُّ فيه الحاجةُ إلى القُدوات العمليَّةِ، فموتُ الصالحينَ يُوجِعُ القلبَ، وموتُ المُصلحينَ أكبرُ وَجَعًا.

ولمَّا بلَغَنا خبرُ وفاتِهِ -رحمه الله- رأيتُ -كما رأى ذلك غيري- كيف تدافَعَ الناسُ، وسَطَّرُوا الكلماتِ في الثناء عليه، وذِكرِه بالجميلِ، في مُختلَفِ أَوجُهِ الإحسانِ والمعروفِ، وحين يُثني الناسُ على المرء بخيرٍ فإنَّهم يُبرزونَ صفاتِهِ وأعمالَه الطَّيِّبةَ الحَسَنةَ على سبيل اقتداءِ الأحياءِ به؛ ليَبلُغوا ما بَلَغَه، وشهادةُ الناسِ وثناؤُهم تُوجِبُ لهم العاقبةَ، كما أخبَرَ بذلك النبيُّ ﷺ فقال: «**مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ، وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ؛ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ**»(١).

وإنَّ إحياءَ القُدوةِ الحَسَنةِ أمرٌ ضروريٌّ، وواجبٌ في المجتمَعِ؛ حيثُ يُسهِمُ في صلاحِهِ، **والناسُ في حاجةٍ إلى مثالٍ قريبٍ منهم يُشاهدونَه؛ ليَقتَدُوا به**، ويكونَ مُعينًا لهم، فهو يعيشُ حالَهُم، ويَتعرَّضُ لِما يتعرَّضونَ له.

وبقاءُ الذِّكرِ الجميلِ، واستمرارُ الثناء الحَسَنِ، والصِّيتِ الطيب، والحمدِ الدائمِ للعبدِ بعدَ رحيلِهِ عن هذه الدارِ؛ نعمةٌ عظيمةٌ، يَختَصُّ اللهُ بها مَن يشاءُ مِن عبادِهِ، ممَّن بَذَلُوا الخيرَ والبِرَّ، ونَشَرُوا الإحسانَ، ونفعوا الخَلْقَ، وجمعوا مع التقوى والصلاح مكارمَ الخِصالِ، وجميلَ الخِلالِ.

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩).

هُـوَ المَـوْتُ فَاخْتَرْ مَـا عَلَا لَكَ ذِكْرُهُ فَلَـمْ يَمُتِ الإِنْسَـانُ مَـا حَـيِيَ الذِّكْـرُ

وقيل كذلك:

قَدْ مَاتَ قَـوْمٌ وَمَـا مَاتَتْ فَضَائِلُهُمْ وَعَاشَ قَومٌ وَهُمْ فِي النَّاسِ أَمْوَاتُ

وأُحاولُ في هذه السطورِ -مِن خلال مُجالسَتي ومُشاهدَتي للفقيد عبرَ سنواتٍ، ومِن خلالِ ما سَمِعتُه مِن أصدقائِهِ، وما سَطَّرَتْه أقلامُ مُحبِّيه- أنْ أُبرِزَ أمرين: نُبَذًا مِن سيرتِهِ وعطائِهِ، وبَعضًا مِن آرائِهِ الفقهيَّةِ في المُعامَلاتِ الماليَّةِ.

نُبذةٌ مِن سِيرتِهِ:

هو الشيخُ الكريمُ أبو محمدٍ د. سعودُ بن محمدِ بنِ عبدِ اللهِ الربيعة، وُلِدَ في ١٢ مِن شهر سبتمبر لسنة ١٩٥٨م، بدولة الكُويتِ، ويَرجِعُ نسبُه إلى بني زيدٍ، مِن آلِ سُليمانَ مِن عطيَّةَ، في بلدةِ شقراءَ في السعوديَّةِ[٢]، ووالدتُه هي وضحةُ بنتُ حَمَدِ بن عبد اللهِ العِيسى -رَحِمَها اللهُ وغَفَرَ لها- مِن بني زيدٍ في بلدةِ شقراءَ[٣].

وتلقَّى تعليمَه الجامعيَّ في جامعة الكُويتِ، حيثُ تخصَّصَ في المُحاسَبةِ، وتخرَّجَ منها عام ١٩٨١م.

انتقالُه إلى مَكَّةَ المُكرَّمةِ للدراسة:

وبعدَ تخرُّجِهِ بسنةٍ تزوَّجَ ثم انتقَلَ إلى مَكَّةَ المُكرَّمةِ للدراسة في جامعة أُمِّ القُرى سنة ١٩٨٣م، واختار التخصُّصَ في العلوم الشرعيَّةِ، فجمَعَ بين دراستِهِ للمُحاسَبةِ في البكالوريوس والعلوم الشرعيَّةِ في الدراسات العُليا -مع دراستِهِ دبلومًا تمهيديًّا في علوم الشريعةِ تهيئةً لمرحلة الماجستيرِ- فصار تخصُّصُه الدقيقُ في المُعامَلاتِ الماليَّةِ **والاقتصادِ الإسلاميِّ**.

- **حَصَلَ على درجة الماجستيرِ** سنةَ ١٩٨٩م، وكانت رسالتُه بعنوان: «**تحوُّلُ المَصْرِفِ الرِّبَويِّ إلى مَصْرِفٍ إسلاميٍّ ومُقتضياتُه**»[٤]، كانت مِن الرسائل التي لم يَسبِقْ إلى موضوعِها ومُعالجتِها

(٢) جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد، لحمد الجاسر (ص٢٧٠).

(٣) جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد، لحمد الجاسر (ص٦٠٥-٦٠٦).

(٤) وطَبع الكتاب «مركز المخطوطات والتراث والوثائق» في منطقة الجابرية بالكويت سنة ١٩٩٢م، في مجلَّدين كبيرين، وقد عَبَّرَ رئيسُ المركزِ -د.محمد بن إبراهيم الشيباني «أبو معاذ» وفقه الله- في تصديرِه للرسالة: **أنَّها كَنزٌ لم يُكتشَفْ مِن قبلُ**. وكان حريصًا على نشره.

أحدٌ قبلَه؛ حيثُ تناوَلَتِ الأسبابَ العَقَديَّةَ والاقتصاديَّةَ التي تُوجِبُ التحوُّلَ مِن نظامٍ مصرفيٍّ رِبَوِيٍّ إلى نظامٍ مصرفيٍّ إسلاميٍّ، والرَّدَّ على الشُّبهاتِ التي أُثيرَتْ لتحليل الفائدة، وبيانَ مواردَ واستثماراتِ المصرفِ الرِّبَويِّ مِن حيثُ مُوافقَتُها أو مُخالفَتُها لأحكام الشرعِ، ثم كيفيَّةَ مُعالَجةِ المُخالِفِ منها بالتعديلِ أو بالإلغاءِ، وصياغةَ البديلِ الإسلاميِّ لها، وتناولتِ الإجراءاتِ النظاميَّةَ للتحوُّلِ، وكيفيَّةَ إعادةِ بناءِ الهيكلِ التنظيميِّ، والمقتضياتِ المحاسبيَّةَ للتحوُّلِ، وكيفيَّةَ مُعالَجةِ حقوقِ والتزاماتِ المصرفِ السابقة على التحوُّلِ، واستعراضَ أهَمِّ العَقَباتِ التي تُواجِهُ عمليَّةَ التحوُّلِ في مراحلِهِ الثلاثِ: الإعدادُ والتحضيرُ، ثم التنفيذُ، وأخيرًا التصفيةُ.

- **وأمَّا درجةُ الدكتوراه** فقد حَصَلَ عليها سنةَ ١٩٩٦م، وكانت بعنوان: «**صِيَغُ التمويلِ الاستثماريِّ في الاقتصادِ الإسلاميِّ**»(٥)، وهي دراسةٌ مُتأنِّيَةٌ لصِيَغِ التمويلِ الاستثماريِّ في الاقتصادِ الإسلاميِّ، في مرحلةٍ تَمُرُّ بها مؤسَّساتُ التمويلِ والبنوكُ الإسلاميَّةُ في مختلَفِ البُلدانِ في مرحلة اختبارٍ، ومحاولةُ إثباتٍ لفاعليةِ نظامِها الاقتصاديِّ، الذي خَرَجَتْ به على النظامِ السائدِ في العالَمِ الحديثِ؛ حيثُ تُعتبَرُ «صيغةُ القَرْضِ بفائدةٍ» هي صيغةُ التمويلِ الوحيدةُ التي تَعتمِدُ عليها مُؤسَّساتُ النظامِ الربويِّ المُعاصِرِ.
- **تتلمَذَ** -رحمه الله- على عددٍ مِن العلماءِ، مِن أبرزِهم: فضيلةُ الشيخِ عبدُ اللهِ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ صالحٍ البَسَّامُ «عضوُ هيئةِ كِبارِ العلماءِ» -رحمه الله- حيثُ كان يَستضيفُه في بيته بمَكَّةَ، ومعالي الشيخ د. صالحُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ محمدِ بنِ حُمَيدٍ «عضوُ هيئةِ كِبارِ العلماءِ، وإمامُ وخَطيبُ المسجِدِ الحرامِ، والمُستَشارُ بالديوان المَلَكيِّ» -حَفِظَه اللهُ- وقد دَرَسَ عليه في الجامعة مِن كتاب «المُغني» علاوةً على دُروسِهِ في الحَرَمِ المَكِّيِّ، فنَهَلَ مِن عُلومِهم، وتأثَّرَ بمنهَجِهِم العلميِّ.

وقد زامَلَه في مرحلة الدراسةِ معالي الشيخ أ.د. عبدُ الرحمنِ بنُ عبدِ العزيزِ السُّدَيسُ -حَفِظَه اللهُ- وكان جارَه في منطقةِ العوالي بمَكَّةَ المُكَرَّمةِ.

مَجلِسُه الأسبوعيُّ في مَكَّةَ:

كان لديهِ درسًا أُسبوعيًّا «يومَ الأربعاءِ» للطلبة الكُويتيِّينَ في مزرعتِهِ بالعوالي، يُحاضِرُ فيه الشيخُ صلاح عرفات -رحمه الله- ويُدَرِّسُ كتابَ «المُوَطَّأ» حتى خَتَمَه، ثم شَرَعَ في درسٍ في «تفسيرِ القرآنِ» ولكنْ لم يُتِمَّه بسبب عودتِهِ إلى الكُويتِ.

(٥) وطَبع الكتاب كاملاً مؤخرًا «دار ركائز للنشر» بدولة الكويت سنة ٢٠٢٣م، بتمويلٍ كاملٍ من مؤلِّفه رحمه الله.

فكان مَنزِلُه ومَجلِسُه عامرًا بالضيوفِ مِن الكُويتِ، ومِن مُختلَفِ بُلدانِ المسلمينَ، مُلتقًى لِطُلَّابِ العلم، يَؤُمُّه ويَفِدُ إليه أهلُ العلمِ والفضلِ ولا ينقطعونَ، مع ابتسامةٍ وكرمٍ وتواضُعٍ لهم.

التدريسُ في كليَّةِ الشريعةِ بجامعة الكُويتِ:

الْتَحَقَ -عَقِبَ عودتِهِ إلى الكُويتِ- بهيئةِ التدريسِ في جامعةِ الكُويتِ سنةَ ١٩٩٧م، أستاذًا في قسمِ الفِقهِ وأُصولِهِ بكلية الشريعةِ، وامتَدَّتْ مسيرتُه الأكاديميَّةُ عُقودًا مِن العطاءِ العلميِّ الرصينِ، وقد تولَّى تدريسَ أجيالٍ مِن الطُّلَّابِ والباحثينَ، وأسهَمَ إسهامًا فاعلًا في تطوير مناهجِ فِقهِ المُعاملاتِ الماليَّةِ الإسلاميَّةِ، وظلَّ فيها مُعلِّمًا ومُربيًّا حتى تقاعُدِهِ عامَ ٢٠٢٤م.

أثرُه ومَنهَجُه في الكُليَّةِ:

- كان مِن الأساتذةِ الذين تركوا أثرًا ملموسًا، أسهَمَ في تعزيز الوعيِ الشرعيِّ بالقضايا الماليَّةِ المُعاصِرةِ، مُعالجةً وتأصيلًا وتقويمًا، بما يَعكِسُ عُمقَ تخصُّصِهِ، ورُسوخَ قَدَمِهِ، وحِرصَه على خِدمةِ العلمِ وأهلِهِ.
- **اتسَمَ منهجُه العلميُّ** بالرَّبْطِ المُنضبِطِ بين أُصولِ الفقهِ الشرعيِّ ومتطلبات الواقعِ الاقتصاديِّ المُعاصِرِ، وذلك في إطارٍ يَجمَعُ بين التأصيلِ والدِّرايةِ، وبين الثباتِ والاجتهادِ، ويَقرِنُ العلمَ بالحكمةِ، والمعرفةَ بحُسنِ المُعامَلةِ.
- كان نعمَ المُعلِّمُ عِلمًا ودرايةً، وخُلُقًا وتواضعًا، يَفتَحُ لطُلَّابِهِ آفاقَ الفَهْمِ، ويَغرِسُ فيهم دِقَّةَ النظرِ، ويُرشِدُهم إلى مقاصِدِ الشريعةِ في قضايا المالِ والاقتصادِ.
- يَتميَّزُ بِدِقَّةِ الطَّرحِ، وعُمقِ الفَهْمِ في قضايا الاقتصاد الإسلاميِّ، مع أُسلوبٍ سهلٍ قريبٍ إلى النفوسِ، مُحَبَّبٍ إلى القلوبِ، بلا تعقيدٍ يُنَفِّرُ، ولا اختصارٍ يُخِلُّ، بل ببيانٍ شافٍ، وجِدِّيَّةٍ في التدريسِ.
- **كان في زمالتِهِ** للدكاترة في الكلية -كما يُحَدِّثُ بذلك أعضاءُ التدريسِ- مُحسنًا إلى زُملائِهِ، مُتوَدِّدًا إليهم، حريصًا على توثيقِ عُرى الوُدِّ بينهم، ولم يَكُنْ يسعى إلى المناصبِ، ولا يُزاحِمُ على مكاسبَ، بعيدًا عن الصراعاتِ والخلافاتِ، بل كان يُحدِثُ أثرَه بهدوءٍ وثباتٍ، دون ضجيجٍ أو استعراضٍ.
- **جَمَعَ بين** سَمْتٍ صالحٍ وهَيْبةٍ راسخةٍ؛ فكانت كَلِمَتُه مسموعةً مُؤَثِّرةً، لا بقُوَّةِ مَنصِبٍ، بل بصِدقِ حضورٍ وعُمقِ مكانةٍ، وكان مُحسِنَ الظَّنِّ بإخوانه، يَلتمِسُ لهم المعاذيرَ، ويُغلِّبُ جانبَ الخيرِ فيهم؛ فلا يَتتبَّعُ عَثْرةً، ولا يُضَخِّمُ هَفْوةً.

- لم يَكُنِ اسمًا عابرًا في سِجِلِّ الأكاديميِّينَ، بل كان مدرسةً في الجَمْعِ بين فِقهٍ مُؤَصَّلٍ وفَهْمٍ بالواقع؛ يُقَرِّبُ العلمَ لطُلَّابِهِ، ويصلُ الأصولَ بحاجاتِ الناسِ، ويَجعَلُ مِن المعرفةِ عمَلًا مُمتَدًّا في الحياةِ.
- وكان -رحمه الله- مثالَ العالِمِ الذي يَشتغِلُ بالبناءِ أكثرَ مِن الاشتغالِ بالضجيجِ، ويُؤْثِرُ الأثَرَ الباقيَ على الحضورِ العابرِ.
- **كنتُ ممَّن تتلمَذَ** على يديهِ في كليَّةِ الشريعةِ -كما يُخبِرُ بذلك د. عبدُ الرحمنِ الصَّوَّاغُ أحدُ أعضاءِ هيئةِ التدريسِ- فشَهِدتُ له بحُسنِ التربيةِ قبلَ حُسنِ التعليمِ، وبصِدقِ العملِ قبل سَعَةِ البَذْلِ؛ نعم المُرَبِّي كان، ونعمَ المُعلِّمُ، ونعمَ العاملُ، نَحسَبُه كذلك واللهُ حَسيبُه.
- لم تَكُنِ ابتسامتُه تُفارِقُ مُحَيَّاه، ولا كان حُنُوُّه يَغيبُ عن كلماتِهِ؛ يَلْقاكَ ببِشرٍ صادقٍ، ويُقرِّبُ منك قُربَ الأبِ المُشفِقِ، يَعدِلُ بين طُلَّابِهِ، ويزنُ الأمورَ بميزانِ قِسطٍ، حازمًا إذا جَدَّ الجِدُّ، عطوفًا إذا اقتضى المَقامُ رِفقًا.

مِن جميلِ صفاتِهِ وتعامُلِهِ:

- **تعرَّفتُ عليه منذُ أكثرَ مِن خمسينَ سنةً** -كما يُحدِّثُ بذلك الشيخُ عدنانُ القادريُّ- فكان عفيفَ اللِّسانِ، دَمِثَ الأخلاقِ، دائمَ الابتسامةِ، بارًّا بوالدته، اصطحَبَها معه عندما أقامَ بمَكَّةَ؛ لإكمالِ الدراساتِ العُليا.
- وكان يَتحيَّنُ الفُرصَ **لإدخالِ السرورِ على والدتِهِ** -رحمه الله- فلمَّا خرَجَتْ مِن المستشفى على إثرِ مَرَضٍ أَوْصَى بذبحِ ناقةٍ بيضاءَ «مِن الوضح» تيمنًا باسمِ والدته، وأجلسَها بعيدًا؛ لتَشهَدَ ذَبْحَ هذا «الحاشي» -تقرُّبًا إلى اللهِ تعالى، فكانت تفرَحُ بذلك.
- ويقولُ آخَرَ: عندما كنتُ أتأخَّرُ عن موعدٍ مع الدكتور سعودٍ، وأعتذِرُ منه لانشغالي مع والدي، كان يقولُ لي: بِرُّ الوالدينِ أعظَمُ الثوابِ، في الدنيا والآخِرةِ، وطاعتُهُما مُقدَّمةٌ.
- **كان صادقَ اللهجةِ**، صافيَ السَّريرةِ، بشوشًا، سَخيًّا، يَأْلَفُ ويُؤلَفُ، سَمْحًا، قريبَ النفسِ مِن الجميعِ، حتى مع المُخالِفِ له في الرأي؛ يُناصِحُ إخوانَه، ويَتَّسِعُ صَدرُه للاختلاف، ويَحفَظُ للآخَرينَ أقدارَهم، فلا يُفسِدُ الخلافُ عندَه للوُدِّ قضيَّةً.
- **مع إظهارِه لرأيِهِ** الذي يراه حقًّا، يُجادِلُ ويُدافِعُ عنه، لكنَّه لا يَخسَرُ مُجادِلَه، بل يزدادُ منه قُربًا مع استمرارِ الحوارِ والصِّلةِ الأَخَويَّةِ، فجَمَعَ بين الحَزْمِ في الموقِفِ والرِّفقِ في الأسلوبِ، وبين

وُضوحِ الرأيِ واحترامِ الآخَرينَ، وهي خصالٌ لا تتأتَّى إلا لمَن رَسَخَتْ في نفسِهِ معاني الإنصافِ وحُسنِ الظَّنِّ.

- **ومِن حديث تواضُعِه**: كان يَجلِسُ مع أقلِّ الناسِ مكانةً، فيَرفَعُه أمامَ الناسِ، ويُصغي لكلِّ أحدٍ، وخلالَ مُلازَمَتي له -كما يُحَدِّثُني داعيةٌ مِن النيجَرِ- كانت تُعرَضُ عليه الخِطاباتُ والطلباتُ الكثيرةُ في إفريقيا وفي السعوديَّةِ، فما قال لأحدٍ قطُّ: طَلَبُكَ هذا لا أفعَلُه، أو: طَلَبُكَ مرفوضٌ، وقد لا يُنَفِّذُه لصاحبِهِ؛ كي لا يُحزِنَ هذا الشخصَ، بل يَعتذِرُ إليه بعد ذلك بطريقةٍ مُناسِبةٍ.
- ويقولُ أحدُ الفُضلاءِ: وجدتُ فيه رجلًا نادرًا، نَذَرَ نفسَه لخدمةِ إخوانِهِ وطلبةِ العلمِ وأهلِ الفضلِ، وكان مَحَطَّ إجماعٍ مِن الناسِ بتنوُّعِ أعراقِهم وبُلدانِهم وأعمارِهم واتجاهاتِهم وتخصصاتِهم وأوضاعِهم الاجتماعيَّةِ، وما هذه الجاذبيَّةُ العامَّةُ إلا لتميُّزِهِ بالأخلاقِ الرفيعةِ، التي يتمَنَّاها كلُّ إنسانٍ.
- ويقولُ آخَرُ: نِعمَ الرجلُ خُلقًا وسمتًا! سَخيًّا على المُحتاجينَ، قريبًا مِن الضعفاءِ، مَجلِسُه عامرٌ بالفوائدِ، وقلبُه عامرٌ بالرحمةِ، لا يَكتَفي بالكلمةِ، بل يَسْعَى لزيارةِ الفُقراءِ في بلدانٍ عِدَّةٍ.
- عَرَفَه مَن جالَسَه **مهمومًا بأمرِ المسلمينَ**، واسعَ القلبِ، طَيِّبَ المَعشَرِ، لا يُرى إلا في نَفْعٍ أو سَعْيٍ في خيرٍ، مَن يراه يرى الشيخَ **الذي لم يَنفَصِلْ عِلمُه عن عَمَلِهِ**، ولا مَكانتُه عن تواضُعِهِ، ولا انشغالُه بالدنيا عن رسالتِهِ فيها؛ فلقد كان حُضورُه مُمتَدًّا في ميادينَ مُتعدِّدةٍ، غيرَ أنَّ الجامعَ بينها جميعًا روحُ المُبادَرةِ الصادقةِ، والعطاءُ الهادئُ الذي لا يَعرِفُ الضجيجَ.
- **يُحَدِّثُني أحدُ أصدقائِهِ الفُضلاءِ** -وقد صَحِبَ الدكتورَ في رحلةٍ إلى «النيجَرِ ومالي» مُدَّةَ شهرٍ تقريبًا- فقال: ما رأيتُ منه إلا كلَّ خيرٍ، ويقولُ: كنتُ أسألُه عن المشاريعِ الخيريَّةِ التي يقومُ بمُتابعتِها أو تأسيسِها هناك، فيقولُ: إنَّها لفاعِلي خيرٍ أَوْكَلوه الاشرافَ عليها، ثم يتضحُ لي أنَّها مِن أموالِهِ أو أموالِ والدتِهِ -رَحِمَهُما اللهُ تعالى- فكان يَحرِصُ على إخفاءِ أعمالِهِ قدرَ الاستطاعةِ.
- **ويضيفُ كذلك**: إنَّنا كُنَّا نذهَبُ إلى القُرى النائيةِ في «مالي» وتصلُ مدَّةُ الرحلةِ في السيارةِ إلى ستِّ ساعاتٍ، والطريقُ وَعِرةٌ جدًّا، كلُّ ذلك في سبيلِ إقامةِ هذه المشاريعِ الخيريَّةِ والدعويَّةِ.. وكان الدكتورُ سمحًا مُتواضعًا، عندما ننامُ في غُرفةٍ ليس فيها إلا سريرٌ واحدٌ، كان يُقَدِّمُني على نفسِهِ -مع أنَّه الأكبرُ سِنًّا- وكان يأكلُ ما يُقدَّمُ له مِن طعامٍ أيًّا كان نوعُه ومستواه، فلا يَتضجَّرُ.
- **ومِن عاداتِهِ**: أنَّه كان حريصًا -قُبيلَ رمضانَ- على إرسالِ الرُّطَبِ إلى أقاربِهِ وأصدقائِهِ وزملائِهِ

في الجامعة، مقرونًا برسالةِ تهنئةٍ رقيقةٍ بالشهر الكريم، يتعاهَدُهُم بها؛ ليُديمَ صِلةَ الوُدِّ، حتى غَدَا ذلك سِمةً معروفةً عنه.

- كثيرًا ما كنتُ أفتحُ بريدي الخاصَّ -كما يُخبِرُ زملاؤُه- فأجِدُ نصيبي منه، في لفتةٍ صادقةٍ تَعكِسُ كرَمَه، وحِرصَه على إدامةِ رُوحِ الأُخُوَّةِ، كانت تلك التفاصيلُ الصغيرةُ في ظاهرها عظيمةً في معناها، تَكشِفُ عن نفسٍ كريمةٍ، تَرَى في التواصُلِ قيمةً، وفي إدخالِ السرورِ رسالةً.
- **وكذلك مِن عاداته** السنويَّةِ اجتماعُه بمُحبِّيه وأصدقائِهِ في المسجِدِ الحرامِ -على سطحِ الدورِ الثالثِ عند القُبَبِ الثلاثِ- في العشرِ الأواخرِ مِن رمضانَ، مع ضيافتِهِ المُعتادةِ بالقهوةِ والرُّطَبِ والتمرِ، فترى زُوَّارَه مِن مُختلَفِ الجِنسيَّاتِ يَحرِصونَ على لقائِهِ ويعرفونَ مكانَه.
- **وكان مِن أكثرِ الناسِ التزامًا** بمواعيدِه، وأحرصِهم على **نوافِلِهِ وأورادِهِ اليوميَّةِ**؛ حيثُ كُنَّا نَنتَظِرُه بعدَ الصلاةِ للانتهاءِ مِن السُّنَنِ وقراءةِ القرآنِ ما يُقارِبُ نصفَ الساعةِ، فلا تَمنَعُه أشغالُه عن أورادِهِ.
- وكان مِن عادتِهِ أنْ يَضَعَ في جَيْبِ ثوبه الحلوياتِ التي يُقَدِّمُها للصغارِ؛ يتألَّفُهم بها.
- ومِن عاداتِهِ السنويَّةِ -خاصَّة لمَّا كان بمكَّةَ المُكرَّمةِ- **استقبالُ أصدقائِهِ ومعارفِهِ القادمينَ مِن الكُويتِ**؛ لأداءِ فريضةِ الحَجِّ، واستضافتُهم عندَه في مزرعةِ العوالي أو في شقةٍ، مع إكرامِهم والقيامِ بما يحتاجونَه.

وفي الجانبِ الخيـريِّ:

- **كان يعمَلُ بصمتٍ**، ويَزرَعُ الأثرَ دونَ أنْ يَنتَظِرَ إشادةً أو ظُهورًا، لم تَفتِنْه الدنيا مع كثرةِ انشغالِهِ بأعمالها ومسؤولياتِها، **بل كانت في يَدِهِ تدبيرًا ولم تَكُنْ في قلبِهِ تعلُّقًا**، امتلَكَ أسبابَها، غيرَ أنَّ اللهَ حَفِظَه -رَحِمَه اللهُ- مِن الخضوعِ لها، بل طوَّعَ الدنيا لخدمةِ الخيرِ، وجَعَلَها معبرًا للعطاءِ لا مَقصِدًا في ذاتها. وتلكَ منزلةٌ رفيعةٌ لا يَتهيَّأُ لها إلا مَن رَسَخَ في قلبِهِ معنى الزُّهدِ الحَقِّ، فتعامَلَ مع الدنيا بوصفِها دارَ ممرٍّ لا مقرٍّ.
- **كان بعيدًا عن الأضواءِ**، فما إنِ انتشَرَ خبرُ وفاتِهِ إلا ومتابعينا -كما تخبرُ رئيسةُ نادي الاقتصادِ الإسلاميِّ بكليَّةِ الشريعةِ- في دُوَلٍ متعددةٍ، يُعبِّرونَ عن حُزنِهم، ويذكرونَ مواقفَ له معهم: دعمًا، وتوجيهًا، وتمويلًا! كان ذلك **كاشفًا عن بُعدٍ لم يَكُنْ ظاهرًا للجميع**؛ إذ تبيَّنَ أنَّ خيرَه لم يكن محصورًا في نطاقٍ محليٍّ، بل امتَدَّ أثرُه إلى آفاقٍ عِدَّةٍ، وفي كثيرٍ مِن الأحيانِ **في خفاءٍ تامٍّ**، لا يطلبُ معه ذِكرًا، ولا يَنتظِرُ ثناءً.

- **وحَدَّثَني أحدُ الإخوةِ العاملينَ في لجانِ الزكاةِ**، أنَّ الدكتورَ -رحمه الله- كان يُسَلِّمُه الأموالَ نقدًا للفئاتِ المعدومةِ في الكُويتِ، ممَّن لا يحملونَ البطاقةَ النظاميَّةَ، الذين لا يستطيعونَ التقديمَ لطلب الدعمِ إلى الجهاتِ الخيريَّةِ، أو مَنَصَّةِ وزارةِ الشؤونِ بسببِ انتهاء صلاحيةِ بطاقتِهم أو لأسبابٍ أخرى، فكنتُ أَدرُسُ حالةَ هذه الأُسَرِ، التي يعيشُ أكثرُهم تحتَ خَطِّ الفقرِ -كما يقالُ- وأُسَلِّمُهم المبالغَ التي تَسُدُّ حاجَتَهم، واستمرَّ هذا الأمرُ مُدَّةَ سنتينِ مِن آخرِ حياتِهِ، رَحِمَه اللهُ رحمةً واسعةً.

ويَعلَمُ اللهُ كم فرَّجَ عنهم الكُرُباتِ بسبب هذه المساعداتِ، كلُّ ذلك بخفاءٍ تامٍّ وصمتٍ، لا يَعلَمُ عنه حتى أقربُ الناسِ إليه، وهذا فضلٌ مِن اللهِ تعالى، وَفَّقَه إليه، وهَيَّأَ له أسبابَه، ونرجو أنْ يكونَ هذا العملُ الصالحُ قبلَ وفاتِهِ داخلًا في حديثِ رسولِ اللهِ ﷺ: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا عَسَّلَهُ**»، قالوا: وما عَسَّلَهُ يا رَسُولَ اللهِ؟ قال: «**يُوَفِّقُ لَهُ عَمَلًا صَالِحًا بَيْنَ يَدَيْ رِحْلَتِهِ؛ حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ جِيرَانُهُ -أَوْ قَالَ:- مَنْ حَوْلَهُ**»[٦].

- وممَّا يُستذكَرُ مِن أوجُهِ الإحسانِ مِن والدِ الفقيدِ -رحمه الله- أنَّه تبرَّعَ للمحتاجينَ في إحدى الدول الآسيويَّةِ **بمبلغِ مِئَتَيْ ليرةٍ عثمانيَّةٍ** «صكوكٍ ذهبيَّةٍ» وسَلَّمَها حينَها لمَن يُوصِلُها إليهم -وكان ذلك نهايةَ السبعينيَّاتِ الميلاديَّةِ- وقال له: هذه الأموالُ مِن ميراث والدي يَرحَمُه اللهُ.

- **وفي العملِ الخيريِّ وإدارتِهِ**: كان يَتألَّمُ مِن الهَدْرِ وسوءِ إدارة الأموالِ الخيريَّةِ، ويرى كثيرًا ممَّن لا يُحسنونَ أعمالَهم، مثل الاستثمارِ في أموالِ الزكاةِ أو الصدقاتِ، فيحتاجُ أنْ يكونَ للشخصِ خلفيَّةٌ إداريَّةٌ، علاوةً على بحثِ المسألة فقهيًّا، وهل تصرُّفُ الجمعياتِ في أموالِ المُتبرعِّينَ هو توكيلٌ أم تفويضٌ؟ فإذا تجاوَزْنا الجانبَ الشرعيَّ نأتي إلى جانبِ الاختصاصِ، فليس كلُّ مَن لديه معرفةٌ وإلمامٌ شرعيٌّ يكونُ بالضرورة لَدَيْهِ اختصاصٌ في إدارةِ الأموالِ، فلا بُدَّ مِن دراسةِ الجَدْوى الاقتصادية لإدارةِ واستثمارِ هذه الأموالِ.

- لذلك أتتْ فكرةٌ لدى الدكتورِ -رحمه الله- في **حوكمة المشاريعِ** المقدَّمةِ للمَبَرَّةِ أو للدعمِ بشكلٍ عامٍ، فتكونُ هناك جهةٌ مُستقِلَّةٌ تُقَدِّمُ اعتمادَها للمشاريعِ طالبةِ الدعمِ، بحيث تُعطي تقييمَها الموضوعيَّ لها، وعلى ضوء ذلك تُمنَحُ المِنحةَ أو لا تُمنَحُ لهذا المشروع، بناءً على حوكمتِها واعتمادِها.

---

(٦) أخرجه ابن حبان (٣٤٢)، والطبراني في الأوسط (٣٢٩٨)، والحاكم (١٢٥٨).

- وهذه الفِكرةُ أَتَتْه لمَّا زارَ ورأى عملَ «مؤسَّسةِ سليمانَ الراجحيِّ» وأُعجِبَ بها، ومِن ذلك عملُ «المركزِ الوطنيِّ لتنميةِ القطاعِ غيرِ الرِّبحيِّ» في السعوديَّةِ؛ حيثُ تميَّزَ عملُهم بتقييم واعتماد المؤسَّساتِ والجمعيَّاتِ الخيريَّةِ سنويًّا، مع وَضْعِ الاشتراطاتِ والضوابطِ للجهاتِ الضعيفة؛ لتقويتِها، والمتميزةِ لتعزيزِها، في آليةٍ دقيقةٍ لذلك.
- **وكذلك مِن اهتماماتِهِ**: حِرصُه على إشراكِ العقولِ الشابَّةِ في إدارة العملِ الخيريِّ، واستقطابِهم للعملِ الدعويِّ في المَبَرَّةِ الخيريَّةِ تحتَ مَظَلَّتِها القانونيَّةِ.
- كان -رحمه الله- **حريصًا على ديمومةِ الأوقافِ** التي يُديرُها ويُشرِفُ عليها، وعلى تنميتِها، ودقيقًا في ضَبْطِ صِيَغِها، واختيارِ المشاريعِ المُناسِبةِ لها، ويقولُ: لا أريدُ أنْ يأتيَ أحدٌ مِن بعدي ويَظُنَّ أنَّي تصرَّفتُ فيه على غيرِ الوجهِ الصحيحِ والحقِّ. فكان يريدُ أنْ يكونَ مَصرِفُ الوقفِ خاليًا مِن الشُّبُهاتِ، وبعيدًا عن الانتفاعِ الشخصيِّ، أو السُّلطةِ الشخصيَّةِ غيرِ المُنضَبِطةِ على هذا المالِ، فيَحرِصُ على ألَّا يَتفرَّدَ بالقرارِ بل يُشرِكُ غيرَه؛ لخدمةِ هذه الأوقافِ.
- عندَما كانت تُعرَضُ طلباتُ المساعداتِ، سواءٌ مِن الأفرادِ أو الأُسَرِ أو الجِهاتِ، **فكان كثيرًا ما يُدَقِّقُ ويَنظُرُ في تفاصيلِ الطلبِ**، ومَدَى حاجةِ صاحبِها، بحيث لا يُعطيه أكثرَ مِن حاجتِهِ، فيُنفِقُ أموالَ المَبَرَّةِ -ومنها الأوقافُ التي يُشرِفُ عليها- في موضِعِها المُناسِبِ، بقَدْرِ الاستطاعةِ.
- **ومِن ذلك لمَّا تقدَّمَتْ** «إدارةٌ مدرسيَّةٌ» في الكُويتِ، لطلب دعمِ تكاليفِ رحلةِ العُمرةِ لِطُلَّابِها -وكانت تُقدَّرُ حينها بألفَيْ دينارٍ تقريبًا- فقال: بهذا المبلغِ أعمَلُ مِن المشاريعِ في إفريقيا ما هو أَوْلَى مِن إنفاقِها على طُلَّابٍ -أغلبِهم- مُقتدرينَ ماديًّا. ويقولُ: **أنا أبحَثُ عمَّا يَنفَعُني يومَ القيامةِ** أكثرَ ممَّا يُسعِدُكم في رحلةٍ للعُمرةِ. فكان -رحمه الله- رَقيبًا على هذه الأموال، وعلى جَمْعِ الحَسَناتِ لأصحابِها.
- ورعايتُه الكبيرةُ للأنشطةِ الثقافيَّةِ والدعويَّةِ -ماديًّا ومعنويًّا- ظاهرةٌ في **احتواءِه للشبابِ**، مِن تسخيرِه بيتَه واستراحاتِهِ للدروسِ الشرعيَّةِ ومجالسِ الصُّحبةِ الصالحةِ في اجتماعِهم الأسبوعيِّ أو الشهريِّ، وتهيئةِ الأجواءِ لهم؛ لمعرفتِهِ أنَّ تحصينَ الشبابِ مِن خطرِ الأفكارِ الضالَّةِ أو الشهواتِ الخاطفةِ له أكبرُ الأثرِ في حِفظِ الدِّينِ، وخِدمةِ المُجتمَعِ.
- ومنها كذلك **دعمُه اللامحدود لأنشطةِ حَلْقاتِ القرآنِ الكريمِ** بحِفظِه وتعليمِه، كـ«مشروع حافظِ القرآنِ» في منطقةِ الفيحاءِ، الذي تولَّى دَعْمَه بالكامل مُؤَخَّرًا -مِن رواتبَ للمُحَفِّظِينَ، وجوائزَ للطُّلَّابِ على مدارِ العامِ، مع حفلٍ سنويٍّ- وكانت **مِن أفكاره** التشجيعيَّةِ للطُّلاب إعطاؤُهم

مبالغَ نقديَّةٍ بعدَ الاختبارِ الأسبوعيِّ، بناءً على درجتِهم، ممَّا أسهَمَ في زيادةِ روح التنافُس البريءِ بين الطُّلَّابِ.

- **ومِن الجديرِ بالذِّكْرِ** أنَّه أسهَمَ بسهمٍ كبيرٍ في تكلفةِ بناءِ «بيتِ القرآنِ» في منطقةِ الفيحاءِ، الذي تُقامُ فيه هذه الحلقاتُ القرآنيَّةُ، وتُعقَدُ الدروسُ الشرعيَّةُ النافعةُ، وكذلك أسهَمَ مع تبرُّعِ والدتِهِ -رحمها الله- في تخصيصِ أحدِ البيوتِ في منطقةِ الفيحاءِ؛ لاستغلالِهِ في إقامةِ حَلقاتِ إدارةِ شؤونِ القرآنِ الكريمِ، التابعةِ لوزارةِ الشؤونِ الإسلاميَّةِ بدولة الكُويتِ.

عملُه في إفريقيا:

- **تعرَّفَ في أثناءِ دراستِهِ** العُليا في مَكَّةَ على مجموعةٍ مِن طُلَّابِ إفريقيا، ورَبَطَتْه بهم علاقةُ صداقةٍ قويَّةٍ، مثل الشيخِ عبدِ اللهِ موسى السوقيِّ -حَفِظَه اللهُ- والشيخِ محمدٍ أبي راضي -حَفِظَه اللهُ- مِن النيجَرِ، وكانت هذه العلاقةُ نواةً أسَّسَ منها بذرةَ العملِ الخيريِّ في إفريقيا؛ **حيثُ شَجَّعَهُم وغيرَهم مِن طلبةِ العلمِ الشرعيِّ على العودةِ إلى بلادِهِم، والدعوةِ فيها**، ومنهم انطلَقَ النشاطُ الخيريُّ في إفريقيا.
- استأنَفَ الدكتورُ سعودٌ -رحمه الله- في سنةِ ١٩٩٧م[٧] **زياراتِهِ إلى قارة إفريقيا**، حيثُ توَقَّفَتْ قليلًا بسببِ الدراسةِ، وقد نتجَتْ عن هذهِ الزِّيارات أفكارٌ دعويَّةٌ وخيريَّةٌ مُتعدِّدةٌ -شارَكَه فيها المشايخُ والدعاةُ في هذه البلاد- لأكثرَ مِن عَقْدَينِ مِن الزمنِ، نَفَعَ اللهُ بها العبادَ والبلادَ في غربِ إفريقيا.
- **حيثُ كانت هذه المشاريعُ تَرتكِزُ أساسًا على «التعليم»** وتتمثَّلُ في تنشئةِ الأجيالِ الناشئةِ تنشئةً إسلاميَّةً صحيحةً، على منهَجِ السلفِ الصالحِ، مع وَعْيٍ تامٍّ بتحدياتِ العصرِ، وكيفيَّةِ مُواجهتِها.
- **وتتمحورُ أعمالُه الدعويَّةُ في إفريقيا** -كما يُخبرني بذلك الشيخ أحمد سليمان رئيسُ مركزٍ خيريٍّ في جمهوريةِ النيجَرِ- على أُمورٍ، منها:
  - تصحيحُ المفاهيمِ الخاطئةِ، والأغلاطِ الشائعةِ، عَقَديًّا وفقهيًّا وسلوكيًّا.
  - تفريغُ الدُّعاةِ -عن طريق **الكفالاتِ النقديَّةِ الشهريَّةِ التي يُرسِلُها**- لبذل جُهدٍ أكبرَ في سبيلِ الدعوةِ إلى اللهِ، وتعليمِ الدِّينِ.
  - توضيحُ المعاملاتِ الماليَّةِ المُعاصِرةِ، وبيانُ الموقفِ الشرعيِّ منها، وقد استفادَ أهلُ هذه

(٧) كما سنبين -لاحقًا- أنه ابتدأ رحلاته وزياراته إلى إفريقيا سنة ١٩٨٩م مع الإخوة في لجنة القارة الإفريقية.

البلادِ مِن اهتماماتِهِ تلك، خاصَّةً الأخيرةَ؛ فكثيرٌ مِن المعاملاتِ الرِّبَويَّةِ عَمَّتْ بها البَلْوَى، وصارَتْ بسبب الشيوعِ أمرًا عاديًّا.

- القيامُ برحلاتٍ دعويَّةٍ ميدانيَّةٍ؛ حيثُ **يُلقي بنفسِهِ محاضراتٍ** في العقيدةِ والوعظِ والأحكامِ، ويَتفقَّدُ مشاريعَه الدعويَّةَ والتعليميَّةَ، ويُقدِّمُ للقائمينَ عليها التعليماتِ اللازمةَ، ويُشارِكُهم في وضعِ الخُطَطِ والدراساتِ عن آفاقِ المشاريعِ، ووسائلِ استمراريتِها.
- الحرصُ **على زيارةِ المناطقِ النائيةِ** التي يَصعُبُ الوصولُ إليها، بسبب الأمطارِ والوديانِ، علاوةً على كثرةِ الحشراتِ الضارَّةِ، لكنَّه كان يجوبُ هذه المناطقَ بنفسٍ طَيِّبةٍ، ويقومُ بواجبِ الدعوةِ، ومُساعدةِ الناسِ.

- كان **أكبرَ مُمَوِّلٍ وداعمٍ لأغلبِ مراكزِ النيجَرِ ومالي** الخيريَّةِ والدعويَّةِ، مِن حيثُ المشاركةُ في الخُطَطِ والإرشادِ والتمويلِ الماديِّ، ومِن ذلك إنشاؤُه عِدَّةَ مدارسَ، وكلُّها تعمَلُ حتى الآنَ ولله الحمدُ.

ولعل مِن أبرزِ تلك المدارس:

- «**مدرسةُ دارِ الحديثِ**» التي تأسَّسَتْ سنةَ ٢٠٠٤م، وتَضُمُّ روضةً للأطفالِ، وقسمًا ابتدائيًّا، وقسمًا إعداديًّا، وهي مزدوجةُ اللُّغةِ، تُدَرِّسُ اللغةَ العربيَّةَ والفرنسيَّةَ، ويَبلُغُ عددُ الفصولِ فيها (١١) فصلًا دراسيًّا، ويصلُ عددُ الطُّلَّابِ في جميعِ الأقسامِ (٩٠٠) طالبٍ.
- ثم أُنشِئَتْ **مدرسةٌ ثانيةٌ** تَحمِلُ نفسَ الاسمِ كذلك «**مدرسةُ دارِ الحديثِ (٢)**» سنةَ ٢٠٠٦م في إقليمِ طاوا شمالَ شرقِ النيجَرِ، وَيَبلُغُ عددُ الفصولِ فيها (١٥) فصلًا دراسيًّا، ويصلُ عددُ الطُّلَّابِ في جميعِ الأقسامِ (٣٧٠) طالبًا.

وكان الدكتورُ يَكفُلُ الطُّلَّابَ الفقراءَ الذين يَدرُسونَ فيها -بالتعاون مع إدارةِ المركزِ الخيريِّ بالنيجرِ؛ لتحديدِ الأفرادِ الأكثرِ احتياجًا للدعمِ- فيُرسِلُ لهم سنويًّا تكاليفَ رسومِ الدراسةِ، والأدواتِ والكتبِ المدرسيَّةَ، والملابسَ.

- ثم أنشَأَ **مدرسةً ثانويةً** سنةَ ٢٠٠٦م ترتكزُ على تدريسِ الموادِّ الشرعيَّةِ، **تُدَرِّسُ الموادَّ باللغةِ العربيَّةِ فقط**، مع وجودِ اللغةِ الفرنسيَّةِ كمادَّةٍ ضمنَ موادِّها الدراسيَّةِ، وليست كلُغةٍ ثُنائيةٍ، ويَبلُغُ عددُ الطُّلَّابِ في جميعِ الأقسامِ (٤٣٠) طالبًا.

وأتَتْ فكرةُ هذه المدرسةِ -بالمُشاوَرةِ والاتفاقِ مع مشايخِ الدعوةِ هناك- **بعدما زارَ الكتاتيبَ**

في المدارسِ غيرِ النظاميَّةِ في المناطقِ النائيةِ، ورآهُم يَتلَقَّوْنَ العلمَ الشرعيَّ، ويحفظونَ المتونَ العلميَّةَ مع المشايخِ، فرأى أنْ يجعَلَ لذلك إطارًا يأخذونَ منه الشهاداتِ، ويساهمونَ بالدعوة والتعليم بطريقٍ نظاميٍّ، وكانت المُهِمَّةُ -في الحقيقةِ- صعبةً، ولكنَّ اللهَ تعالى يسَّرَ ذلك الأمرَ، **ووافقتِ الجامعةُ الإسلاميَّةُ بالنيجَرِ على الإشرافِ الأكاديميِّ على هذه الثانوية**، فمَوَّلَها الدكتورُ تمويلًا كاملًا، بما في ذلك قِسمًا داخليًّا يَسكُنُ فيه الطُّلَّابُ الذين يأتونَ مِن المُدُنِ والقُرى البعيدةِ، ويَضمَنُ لهم السكنَ والطعامَ والجوانبَ الصحيَّةَ، ولا زالَتِ الثانويةُ موجودةً حتى الآنَ، ولله الحمدُ والمِنَّةُ.

- وأنشَأَ «**مركز ابنِ عبدِ البَرِّ**» في مينيكا شمالَ مالي، بالتعاونِ مع المركزِ الخيريِّ بالنيجَرِ، بعدَ زيارةٍ ميدانيَّةٍ للمنطقةِ هناك عامَ ٢٠٠٥م، ومِن المشايخِ القائمينَ عليه الشيخُ الصاويُّ، وهو مِن وُجهاءِ المنطقةِ هناك.

وكذلك أنشَأَ مراكزَ في «**بوركينافاسو**» وفي «**بينينَ**» وفيها عددٌ مِن الدُّعاةِ الذينَ يخطبونَ في المساجدِ ويَعِظونَ، ويقومونَ برحلاتٍ دعويَّةٍ ميدانيَّةٍ، بكفالةٍ مِن الدكتورِ -رحمه الله-.

وهذه المدارسُ تتضمَّنُ خدماتٍ مُصاحبةً: كبئرٍ ارتوازيٍّ، ومكتبٍ للإدارةِ، ومخزنٍ، وأثاثٍ، وهي مدعومةٌ بالكاملِ منه -رحمه الله- منذُ إنشائِها حتى سنةَ ٢٠١٩م؛ حيثُ **بدأَتْ هذه المدارسُ والمراكزُ بتشغيل نفسِها بنفسِها**، وكانت هذه فكرةَ الدكتورِ -رحمه الله- بحيثُ تَعتمِدُ هذه المشاريعُ على مواردِها الخاصَّةِ، وتستقِلُّ ماديًّا بعدَ فترةٍ مِن إنشائها، فتُحَصِّلُ الرسومَ الدراسيَّةَ -ممَّن يستطيعُ- مِن أولياءِ أمورِ الطُّلَّابِ، وتَعمَلُ الدعاياتِ لتسويقِها في سوق العملِ، ومع مرورِ الوقتِ تَستقِلُّ بنفسِها، ولا تحتاجُ إلى الدعمِ الخارجيِّ.

- وصارت **آثارَ هذه الصروحِ التعليميَّةِ** واضحةٌ في الناسِ -ولله الحمدُ- فتَجِدُ أغلبَ القطاعاتِ الحيويَّةِ في النيجَرِ اليومَ -سواءٌ في الدَّرَكِ، أو الشرطةِ، أو الدوائرِ الرسميَّةِ، أو في التعليمِ- قد مرَّ بها ودَرَسَ فيها، واستفادَ منها، فكان له الفضلُ الكبيرُ في ذلك بعدَ اللهِ تعالى.
- **الاهتمامُ الثاني له** -رحمه الله- كان في **إعانةِ الفئاتِ الضَّعيفةِ**، التي يَغفُلُ عنها الكثيرُ، كفئةِ الأراملِ والمُنقطعينَ، بل كان الدكتورُ في رحلتِهِ الدعويَّةِ -خلالَ العشرينَ سنةً التي عَرَفتُه فيها، كما يُخبِرُني بذلك رئيسُ مركزٍ آخَرَ في النيجَرِ- يَحرِصُ على تتبُّعِ أُسَرِ الدعاةِ الذين تُوُفُّوا، أو حَصَلَتْ لهم أمورٌ تُعيقُهم عن الحركةِ والعملِ، فيُعطيهم الاهتمامَ الكبيرَ؛ حتى لا يَشعُروا بفُقدانِ مَن فَقَدُوا، أو ما فَقَدُوا.

وهذا الدعمُ مِن الدكتور للدعاةِ ليس دعمَ مُتبرِّعٍ فقط، **بل هو دعمُ أخٍ لإخوانِهِ**؛ لِرَفْعِ مُستواهُم ومكانتِهم، وتحسينِ مَعيشَتِهم، وتواجُدِهم في دُوَلِهم.

وهذا السَّعيُ الدَّؤُوبُ ليس مُقتصِرًا على دولِ إفريقيا، بل كان يَرْعَى هذه الفئاتِ التي هاجَرَتْ إلى السعوديَّةِ للدراسةِ أو العملِ، وتَقَطَّعَتْ بهم السُّبُلُ هناك، أو حَصَلَتْ لهم مشاكلُ تتعلَّقُ بالإقاماتِ، أو الحاجةِ لتسديدِ رسومِ دراسةِ أبنائهم، وكذلك العَجَزةُ الذين لا يستطيعونَ تسديدَ الإجاراتِ، وكذلك المرضى الذين يحتاجونَ إلى العلاجِ؛ لِضِيقِ ذاتِ اليدِ.

فكان -رحمه الله- **يَهتَمُّ بجميع هذه الفئاتِ**، وأراه في كلِّ رمضانَ يَجلِسُ في الحَرَمِ المَكِّيِّ، ويأتيه الناسُ مِن فِئةِ الأرامل، ومِن فِئةِ الطُّلَّابِ، ومِن فِئةِ الدُّعاةِ، ومَن يُريدُ الرجوعَ إلى بلدِهِ للدعوةِ، وكنتُ واحدًا مِن هؤلاءِ -كما ذَكَرَ ذلك لي رئيسُ مركزٍ في النيجَرِ بنفسِهِ- حيثُ كان يُلِحُّ عليَّ بالرجوعِ والدعوةِ، وكنتُ آنذاكَ طالبًا في «معهدِ الحَرَمِ المَكِّيِّ الشريفِ»، فيأمُلُ منِّي خيرًا، ويقولُ: أنتَ لو رَجَعتَ يَنفَعُ اللهُ بك البلادَ والعبادَ، فجُلوسُكَ هنا يُعتبَرُ خَسارةً.

وفي يومٍ مِن الأيامِ قلتُ له: إذَنْ جَهِّزْ لي أُمورًا، منها: الكفالةُ لتمويلِ نفسي وأُسرتي، فليس عندي في إفريقيا شيءٌ، فضَحِكَ -رحمه الله- فكأنَّني أرى ابتسامَتَه الواسعةَ، وتحريكَه لِحيَتَه بيدِهِ، فقال: أنت تَثِقُ بكفالتي، وتُقنِعُكَ على أنْ تَرجِعَ وتعودَ، ولا يَكفيكَ وعدُ اللهِ تعالى أنَّه لن يُضَيِّعَ الداعيةَ الذي يدعو إلى دينِهِ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٢-٣]، فأحرَجَني فِعلًا بهذه الكلماتِ، ثم قُمنَا للصلاةِ، وبعدَها شَرِبْنا ماءَ زَمزَمَ، فعاوَدَ السؤالَ: ما رأيُك؟ فقلتُ: لو قَدَرتُ على تدبيرِ تذاكرِ أهلي، فقال مُباشَرةً: الأمرُ عندي، سأَحجِزُ لك تذاكرَ مفتوحةً، وعندما تتجَهَّزُ تُحَدِّدُ الوقتَ المناسبَ للسفرِ.

- كان حريصًا على **توجيهِ الدعمِ المناسِبِ للمشاريعِ**، فمثلًا: يَحرِصُ على ألا يُزادَ في المسجدِ ما لا حاجةَ له، أو عند تقارُبِ بناءِ مسجدينِ، فيُوَجِّهُ أنْ يُوضَعَ مبلغُ المسجدِ الثاني -الذي سيُبنى- في فصلٍ دراسيٍّ مثلًا، أو في كفالةِ لأئمةِ المساجِدِ.

ويَحرِصُ قبلَ بناءِ المسجدِ أنْ **يَتوفَّرَ له إمامٌ صاحبُ عقيدةٍ سليمةٍ**؛ لِيَنتَفِعَ به الناسُ، ولو كان مستواه العلميُّ ضعيفًا ولكنَّه ذو مَنهَجٍ سليمٍ، ويَحرِصُ أنْ يُلائِمَ المسجدُ أحوالَ المنطقةِ هناك، فيُوصي بتكثيرِ النوافذِ والأبوابِ مثلًا؛ كي يَدخُلَ الهواءُ؛ لعدمِ استعمالِ المُكَيِّفاتِ، ويَحرِصُ أنْ يكونَ فيه حَلْقةٌ لتعليمِ وحِفظِ كتابِ اللهِ تعالى.

- وهناك أمرٌ يَحرِصُ عليه -وهو **فريدٌ؛ حيثُ لم أَرَ مَن يقومُ به مِن الجمعياتِ الخيريَّةِ**- وهو ترميمُ **وصيانةُ المشاريعِ الخيريَّةِ السابقةِ بغَضِّ النظرِ عمَّن عَمِلَها** أو أسَّسَها، مثلُ ترميمِ المساجدِ مُتهالِكةِ البناءِ، والآبارِ المُتَهَدِّمةِ، أو التي تحتاجُ إلى صيانةٍ، كتعطُّلِ الشَّفَّاطِ الكهربائيِّ، أو المِضَخَّةِ، أو الأسلاكِ، أو تعطُّلِ الطاقاتِ الشمسيَّةِ، بحيثُ يُستفادُ مِن الأموالِ في عملِ مشاريعَ أُخرى، ولا ينقطعُ أجرَ من أسَّسَها.
- كان **برنامجُ المكفولينَ** مِن طرفِ الدكتورِ -ﷺ- يشمَلُ: إعاشةَ طُلَّابِ الجامعةِ، وإمامةِ المسجِدِ والخطباءِ فيه، وإقامةَ حَلْقاتِ حِفظِ القرآنِ الكريمِ، وكفالةَ داعيةٍ مُتجوِّلٍ بين القُرى، ومُدَرِّسٍ في مدرسةٍ، وكفالةَ حَلْقاتِ تحفيظٍ وشرحِ المتونِ العلميَّةِ **التي تُدَرَّسُ هناكَ**، مثل: كتابِ التوحيدِ للشيخِ محمدِ بنِ عبدِ الوهابِ، والعقيدةِ الواسطيَّةِ لشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ، ومتنِ الآجُرُّوميَّةِ في النحوِ، وألفيَّةِ ابنِ مالكٍ في النحوِ كذلك، وحِفظِ عُمدةِ الأحكامِ بشرحِ الشيخِ البَسَّامِ، وحِفظِ وشرحِ الأربعينَ النوويَّةِ.
- كان يُوصي ويسعى **لتكثيرِ الجمعياتِ الخيريَّةِ**، وأنْ تعمَلَ على **برامجَ محاسبيَّةٍ ذكيَّةٍ وصارمةٍ**، تُمَكِّنُها مِن الاعتمادِ على نفسِها، وكان يقولُ: التمويلُ الخارجيُّ غيرُ مضمونِ الاستمرارِ.

فِكرةٌ دَعَويَّةٌ:

كان أغلَبُ الدُّعاةِ يتحاشونَ التعامُلَ مع أهلِ البِدَعِ أو الحديثَ معهم، بينما كان يرى الدكتورُ خلافَ ذلك، وهو أنَّ التركيزَ على الداعيةِ الخُرافيِّ أو المُبتَدِعِ -خاصَّةً البارزينَ ذَوِي المكانةِ- وبَذْلَ الجُهدِ في تصحيحِ عقيدتِهِ، وإعادتِهِ إلى النَّهجِ القويمِ أَوْلَى مِن مُحاولةِ بناءِ شخصيَّةٍ علميَّةٍ جديدةٍ.

فيرى أنَّ هذا الداعيةَ (المُبتَدِعَ) لديه شخصيَّةٌ إسلاميَّةٌ، ولَدَيْهِ ديانةٌ، ولَدَيْهِ استقامةٌ، لكنَّها مُنحَرِفةٌ، فمحاولةُ إعادتِهِ إلى الجادَّةِ وتقويمِ منهجِهِ أسرَعُ مِن بناءِ شخصيَّةٍ علميَّةٍ جديدةٍ، أو بناءِ شخصيَّةٍ مُتديِّنةٍ جديدةٍ.

وكذلك يرى أنَّ مِن وسائلِ التأثيرِ على هذا الداعيةِ **الإحسانُ إلى أبنائِهِ**، وكفالتُهم في الدراسةِ وغيرِها، ممَّا يُؤَثِّرُ فيه تدريجيًّا، وأقلُّها يَكُفُّ شَرَّه عن دُعاةِ السُّنَّةِ، بل ومِن آثارِ ذلك أنَّ هذا الابنَ الذي يُكفَلُ يَتعلَّمُ الدِّينَ الصحيحَ، وسيَرِثُ مكانةَ والدِهِ ومَنصِبَه، كما هو السائدُ في ديارِهِم.

وقد نجَحَتْ هذه الطريقةُ -فعليًّا- كثيرًا في النيجرِ وإفريقيا عمومًا مع هؤلاءِ المشايخِ الخُرافيِّينَ، الذين كانوا لا يَقبَلونَ النِّقاشَ أصلًا، فنَجِدُهم رجعوا إلى السُّنَّةِ، بفضلِ اللهِ تعالى، ثم بفضلِ هذا الأسلوبِ الذي اتَّخَذَهُ الدكتورُ ﷺ.

تأسيسُ مَبَرَّةٍ خَيريَّةٍ في الكُويتِ:

لم يَكُنْ يومًا -رحمه الله- بعيدًا عن الأيتامِ والفقراءِ، بل كان ساعيًا منذُ أنْ كان طالبًا إلى دعمِ المحتاجينَ، وكفالةِ الدُّعاةِ الذين هم أقربُ إلى أقوامِهم؛ للتأثيرِ عليهم في نشرِ الدينِ، **فسافرَ مع الإخوةِ** في «لجنةِ القارَّةِ الإفريقيَّةِ التابعةِ لجمعيَّةِ إحياءِ التراثِ الإسلاميِّ» عِدَّةَ مراتٍ، حيثُ كانت أولُ رحلاتِهِ في نهايةِ سنةِ ١٩٨٩م -كما يُخبِرُني بذلك رئيسُ اللجنةِ وَفَّقَه اللهُ-[٨] ومنها في نهايةِ سنةِ ٢٠٠١م التي زارَ خلالها سبعَ دُوَلٍ إفريقيَّةٍ «منها: النيجَرُ، مالي، غامبيا، ساحل العاجل، بوركينافاسو، غانا» خلال إحدى وعشرينَ يومًا، وكوَّنَ علاقةً جَيِّدَةً مع الدعاةِ هناك، واطَّلَعَ على سِيَرِ المشاريعِ ودَعَمَها.

- **وكانت ثقةُ أهلِهِ وأسرتِهِ فيه كبيرةً**؛ حيثُ كان كثيرٌ مِن تبرُّعاتِهم وأوقافِهم تحتَ إدارتِهِ، بسببِ دِقَّتِهِ وحِرصِهِ ووَرَعِهِ، الأمرُ الذي أسهَمَ في إنشاءِ وتأسيسِ «**مَبَرَّةِ صنائعِ المعروفِ الخيريَّةِ**» التي أُشهِرَتْ في الجريدةِ الرسميَّةِ بتاريخ ٦/ ٥/ ٢٠١٨م، بالقرارِ الوزاريِّ رقم (٤٧/ أ - ٢٠١٨)؛ دعمًا للمشروعاتِ التنمويَّةِ والخيريَّةِ والدعويَّةِ في الكُويتِ.

في العملِ الماليِّ والتجاريِّ:

- كان -رحمه الله- أحَدَ مُؤسِّسي الهيئةِ الشرعيَّةِ في «بنك بوبيان» وعضوَ هيئةِ الرقابةِ الشرعيَّةِ فيه، وأحَدَ مُتخصِّصي الاقتصادِ الإسلاميِّ في الكُويتِ.
- كان سيفًا على التحايلاتِ في الاستثماراتِ الإسلاميَّةِ؛ فلا يَقبَلُ بأنْ تكونَ الاستثماراتُ الإسلاميَّةُ صوريَّةً، بينما هي في حقيقتِها رِبَويَّةً وغُلِّفَتْ بغلافِ الشرعِ.
- لذا **ابتعَدَ عن عضويةِ بعضِ اللجانِ الشرعيَّةِ** في المُؤَسَّساتِ الماليَّةِ والبنوكِ الإسلاميَّةِ، و**يَرجِعُ ذلك إلى ما يراه مِن توسُّعٍ بعضِها وتساهُلِها** في التعاملاتِ الماليَّةِ التي تُستورَدُ -لأنَّنا في أوطانِنا لا نصنَعُ المنتجاتِ بل نُغَيِّرُ فيها قليلًا ونُؤَسلِمُها كما يقال- لأنَّ هذه البنوكَ والمؤسساتِ تجاريَّةٌ، وأصحابُها يريدونَ الرِّبحَ ومُواكبةَ السوقِ دونَ اعتبارٍ كبيرٍ للجوانبِ الشرعيَّةِ، فكان ذلك يُزعِجُه.

وهو يرى أنَّ أعضاءَ الهيئةِ الشرعيَّةِ مُؤتمَنينَ على الفتوى، فلا بُدَّ أنْ يأخُذوا وقتَهم الكافيَ في فَهْمِ المسألةِ ودراستِها، وفي المقابلِ فأصحابُ البنوكِ يُريدون قرارًا سريعًا في حُكمِ مُعامَلةٍ ما في

(٨) والجدير بالذكر أن **لأخيه عبد الله الربيعة** «أبي حمد» -رحمه الله- علاقة سابقة برئيس لجنة القارة الإفريقية الشيخ جاسم العيناتي -وفقه الله- حيث كان يسافر معه إلى دول إفريقيا؛ لمتابعة المشاريع المدعومة من قبله والمقامة هناك.

مُدَّةٍ يسيرةٍ، لا تَكفي لدراستِها بشكلٍ وافٍ، وهي تحتاجُ إلى دراسةِ تكييفٍ للمسألةِ، وإرجاعِها إلى أُصولِها، والتخريجِ عليها، وقد تكونُ مِن ذواتِ الشَّبه.

وممَّا كان يُزعِجُه التوسُّعُ في القروضِ، والوكالةُ في الاستثمارِ، والتوَرُّقُ، والمُرابَحةُ بدونِ شروطِها، وغيرُ ذلك، **ويرى أنَّه يتحمَّلُ المسؤوليةَ أمامَ اللهِ** لهؤلاء الناس، الذين وَثِقُوا في هذه الهيئةِ الشرعيَّةِ على أموالهم.

- **ويرى الدكتورُ**[٩] -رحمه الله- أنَّ الهدفَ الأساسيَّ مِن إنشاءِ المصارفِ الإسلاميَّةِ هو إعمارُ الأرضِ، وتحقيقُ التنميةِ، وليس مجرَّدَ تحقيقِ الأرباحِ مِن خلالِ العقودِ الصوريَّةِ.

كما كان يُحَذِّرُ مِن خَطَرِ مُحاكاةِ وتقليدِ البنوكِ الإسلاميةِ للمنتجاتِ التقليديَّةِ (الرِّبَويَّةِ) وتغييرِ المسمَّيَاتِ فقط، بَدَلًا مِن ابتكارِ أدواتٍ نابعةٍ مِن جوهرِ الشريعةِ.

حتى أصبحَتْ بعضُ البنوكِ الإسلاميَّةِ تبحَثُ عن الربحِ المضمونِ دونَ الدخولِ في مخاطرِ الاستثمارِ الحقيقيِّ، فإنَّ مفهومَ «إعمار الأرض» ووظيفةَ «المالِ في الإسلام» ليست التكاثُرَ لذاتِه، بل لتمويلِ مشاريعَ تَبْني المصانعَ، وتَستصلِحُ الأراضيَ، وتَخلُقُ فُرَصَ عملٍ.

وأهميَّةُ تطبيقِ قاعدةِ «الغُنْمُ بالغُرْمِ» بحيث يكونُ الرِّبحُ ناتجًا عن تحمُّلِ المسؤوليَّةِ والمخاطرةِ (المُشارَكةِ)، وليس مجرَّدَ تأجيرٍ للمالِ.

كما أنَّ كفاءةَ البنكِ الإسلاميِّ يجبُ أنْ تُقاسَ بما حَقَّقَه مِن تنميةٍ في المجتمَعِ، وليس فقط بصافي أرباحِهِ السنويةِ.

ودعوة الفقهاءِ والاقتصاديِّينَ إلى التعاونِ لابتكارِ عقودٍ تمويليَّةٍ حديثةٍ تَخدُمُ البِنيةَ التحتيَّةَ والمشاريعَ الإنتاجيَّةَ الكُبرى، وغير ذلك ممَّا بَيَّنَه بتفصيلٍ في رسالَتَي الماجستيرِ والدكتوراه.

- **وفي جانبِ تجارتِهِ**: كان -رحمه الله- بعيدًا عن التعاملاتِ التي قد تَشوبُها الشُّبهةُ، فلا يشتري العقارَ الذي يَعرِضُه صاحبُه للبيعِ مُضطرًّا -كما يُخبِرُ بذلك أحدُ الفضلاءِ مِن أصحابِ المكاتبِ العقاريَّةِ- حرصًا منه ألَّا يَدخُلَ في النفوسِ شيءٌ، وألَّا تُستغَلَّ حاجةُ صاحبِ العقارِ حينَها، فكانت أخلاقُه العاليةُ هي الحاكمةَ لتصرفاتِه.

---

(٩) انظر حول هذا المفهوم مقابلةً مع التاجر المعروف صالح كامل -رحمه الله- مؤسس ورئيس مجموعة البركة المصرفية، عبر قناة «CNBC عربية» في برنامج «حوار الأسبوع» الذي أذيع سنة ٢٠١٣م، والدكتور سعود يميل إلى مثل هذه المفاهيم التي ذكرها رحمه الله في هذه المقابلة.

ويقولُ: كان مِن بِرِّهِ **بوالدتِهِ وأُختِهِ**: أنَّهُما كانَتَا مُقدِمَتَينِ عليه عندَ اختيارِ عَقارٍ يُمَثِّلُ فُرصةً للشراءِ، فيقولُ لي: أعرِضُ الأمرَ على والدتي وأُختي أولًا.

وفي الجانبِ الدعويِّ والتوعويِّ:

- اهتَمَّ -رحمه الله- بنشرِ الوعيِ الفقهيِّ، يَظهَرُ ذلك جَليًّا بدَعْمِهِ الكبيرِ -كما رَأَيْناه في عَمَلِنا معه في المَبَرَّةِ وغيرِها- في نَشْرِ الثقافةِ الإسلاميَّةِ، وتبصيرِ الناسِ بدِينِهم، مِن خلالِ طباعةِ الكُتُبِ الفقهيَّةِ التخصصيَّةِ، والتحقيقاتِ الجادَّةِ؛ حيثُ كان يتأكَّدُ أنَّ الكتابَ ذا ثمرةٍ علميَّةٍ بارزةٍ حتى يَدعَمَه، وعلى سبيلِ المثالِ: **دَعمُه لطباعةِ كُتُبٍ**: «شرحِ الزُّرقانيِّ على مُوَطَّأِ الإمامِ مالكٍ» في سبعِ مُجلَّداتٍ، «المُبدِعِ شرحِ المُقنِعِ» في عَشَرةِ مُجلَّداتٍ، «الآدابِ الشرعيَّةِ والمصالحِ المرعيَّةِ» في خمسةِ مُجلَّداتٍ، «شرحِ زادِ المُستقنِعِ للشيخِ المُشَيْقِحِ» في سبعةِ مُجلَّداتٍ، وغيرِها مِن الكُتُبِ.
- علاوةً على **توليه رئاسةِ تحريرِ** «مجلَّةِ الفِقهِ الحنبليِّ وأُصولِهِ» منذُ إنشائها سنة ٢٠٢٢م وحتى بعد تقاعُدِه مِن كليَّةِ الشريعةِ، ثم انضَمَّ إلى هيئتِها الاستشاريَّةِ، التي تجمَعُ ثُلَّةً مِن كبارِ المشايخِ والعلماءِ.
- **كان مُبادرًا في أعمالِهِ**، فمنذُ سماعي به قبلَ خمسٍ وعشرينَ سنةً -كما يقولُ أحدُ الدعاةِ- وأنا أجدُ اسمَه مقرونًا بالدعمِ الخيريِّ والدعويِّ، **وآخِرُ عهدي به داعمًا لأنشطةٍ في بريطانيا**، ووَصيَّتُه التركيزُ على محاربةِ الإلحادِ، والأفكارِ المُخالِفةِ للعقيدةِ.

فما إنْ تُعرَضُ عليه فكرةٌ نافعةٌ، أو مشروعٌ يَخدُمُ المجتمعَ، إلَّا أثنى عليه، وشَجَّعَ أصحابَه، وسعى في تفعيلِهِ، وقد ذكرتُ له يومًا فكرةً تتعلَّقُ بحلقاتٍ قرآنيةٍ لتبنِّيها، فاستقبَلَها برحابةِ صَدرٍ، وأثنى عليها، بل أشار عليَّ بالمُضيِّ في تبنِّي المشروعِ الخيريِّ وتفعيلِهِ.

- كان حريصًا على **إنشاءِ مدرسةٍ في الكُويتِ** بأرقى المواصفاتِ، ويُطَعِّمُها بالطابعِ الإسلاميِّ، وقد اجتَمَعْنا -كما يُخبِرُ بذلك الشيخُ عدنانُ- وحَدَّدْنا معًا الأُسُسَ التي تقومُ عليها تلك المدرسةُ، ولكنْ لم يَجِدِ الكادرَ المناسبَ لها، مع صعوبةِ تطبيقِ بعضِ القوانينِ التي حالَتْ دونَ ذلك حينَها.
- وممَّا يَتَّصِلُ بالجانبِ الدعويِّ، **كان الدكتورُ** -رحمه الله- **يرى أنَّ الدخولَ والمشاركةَ في المجالسِ النيابيَّةِ** والانتخابِ للبرلماناتِ كـ «مجلسِ الأُمَّةِ» مِن قِبَلِ السَّلفيِّينَ والمُتَديِّنينَ - أدَّى إلى

مفاسدَ أكبرَ للدعوةِ الإسلاميَّةِ؛ حيثُ صارَ الناسُ ينظرونَ إلى السَّلفيِّينَ على أنَّهُم يُنازعونَهم أمورَ دُنياهم، والبحثَ عن مصالِحهم الحزبيَّةِ أو الخاصَّةِ، فضَعُفَتِ الثقةُ بهم؛ لأنَّ الأحرى بهم أنْ يُرَكِّزُوا على تعليمِ الناسِ أمورَ دينِهم، وعَدَمِ مُنازعتِهم دُنياهم، فذلك أدعى لقبولِ دعوتِهم ونُصحِهم.

لأجلِ ذلك صار يميلُ بقوَّةٍ إلى رأيِ الشيخِ الألبانيِّ -رَحِمَه اللهُ تعالى- في أنَّ الأفضلَ للسَّلفيِّينَ وطُلَّابِ العلمِ هو عدمُ الدخولِ في مثلِ هذه البرلمانات، مع عدمِ تركِ الساحةِ للمُفسدينَ، بل إعطاءُ الصوتِ وانتخابُ أفضلِ المترشحينَ.

تأسيسه حملةً للحَجِّ:

كان الدكتورُ حريصًا على أداءِ مَنسَكِ الحجِّ كلَّ سنةٍ، ابتداءً مِن وُجودِهِ في مَكَّةَ أيامَ دراستِهِ، واستمَرَّ ذلك حتى بعدَ رجوعِهِ إلى الكُويتِ، مع مشاركتِهِ في حملاتِ الحجِّ كـ «حملة عبدِ اللهِ العساكر» في بعضِ أعمالِها التوعويَةِ والثقافيَّةِ والإداريَّةِ، ثم تطوَّرَ الأمرُ -خاصَّةً لما فَرَضَتِ القوانينُ منعَ أداءِ الحَجِّ لمَن أدَّاه- فأسَّس شركةً لخدماتِ الحَجِّ، يستطيعُ مِن خلالها أداءَ الحجِّ سنويًّا -لكونه صاحبِها- وتفويضِ إدارتِها لأبنائِهِ مع مَن يَثِقُ به، فبدأَتْ حملته بتسيير أولى رحلاتِها سنةَ ١٤٤٣هـ (٢٠٢٢م)، ثم أتبَعَها بعدَ سنتينِ بإنشاء حملةٍ أُخرى منخفضةِ التكاليفِ، ولم يَكُنْ هدفُه منها الربحَ -كما رَأَيْنا ذلك- بل كان الهدفُ هو ضمانُ حَجَّتِهِ السنويَّةِ، وكذلك تيسيرُ أداءِ هذه الفريضةِ على الناسِ.

- **والجديرُ بالذِّكْرِ** كان أخوه الأكبرُ «عبدُ اللهِ يَرحَمُه اللهُ» يذهَبُ لأداءِ فريضةِ الحَجِّ معه عِدَّةَ سنواتٍ؛ حيثُ كان الدكتورُ سعودٌ يتولَّى كلَّ شؤونِ هذه الحملة العائلية المُصغَّرةِ، منذُ أنْ كان طالبًا في مَكَّةَ المُكَرَّمةِ، مع حرصه على جَمْعِ أقاربِهِ وأهلِهِ لأداءِ هذه الفريضةِ.

تعاملُه وعلاقتُه بأبنائِهِ:

- كان **دائمَ الترحيبِ بأبنائه**، ويُحِبُّ مناداتَهم بالمسمَّيَاتِ التي تَبني الثقةَ في نفوسهم مثل: هلا بشيخةِ البناتِ..، هلا بشيخِ الشبابِ.. إلخ.
- ومع ذلك كان حازمًا معهم، يُرَبِّيهم على الانضباطِ والالتزامِ بالشرعِ، ويَحرِصُ دائمًا على اختيارِ البيئةِ الإسلاميَّةِ التي تَدعَمُ التنشئةَ التي أنشأهُم عليها.
- كما كان يَحرِصُ على تحفيظِهم القرآنَ الكريم يوميًّا، مُستعينًا بالمُحَفِّظينَ والمُحَفِّظاتِ، فكانت ساعةُ حفظِ القرآنِ جزءًا لا يَتجَزَّأُ مِن يومِهم في المنزلِ.

- لم يَكُنْ كثيرَ النُّصحِ لكنْ نصائحُه بَقِيَتْ عالقةً في ذاكرتِهم، ومِن تلك النصائحِ: أنَّ سوءَ الظَّنِّ لا يَضُرُّ إلا صاحبَه، وأنْ يَصرِفُوا جُهدَهُم في مناقشةِ الأفكارِ لا أصحابِ الأفكارِ.
- كان حريصًا على صِلةِ الرَّحِمِ، وكان يُرَبِّيهم على ذلك منذُ نُعومةِ أظفارِهم، فكان يَغرِسُ فيهم قيمَ التسامحِ والتنازُلِ عندَ التنازُعِ بينهم كأطفالٍ، فلم يَكُنْ يأخُذُ دورَ القاضي، بل كان يقولُ لهم مُشَجِّعًا: مَن يَتنازَلُ منكم أولًا هو الفائزُ بالأجرِ.. جملةٌ بسيطةٌ كانت تُنهي العديدَ مِن الشِّجاراتِ الطفوليَّةِ.
- وممَّا حَرَصَ عليه أيضًا تعليمُهم السباحةَ والرمايةَ وركوبَ الخيلِ، وقد تفرَّدَ بنفسِهِ بتعليمِهم السباحةَ.
- لم يَكُنْ يُشَجِّعُ على التبذيرِ والإسرافِ، فكان يُعَلِّمُهم الاقتصادَ في الإنفاقِ، ويُعَوِّدُهم على مصروفٍ شهريٍ ثابتٍ، وكان دائمًا يَحُثُّهم على شُكرِ النِّعَمِ والتفكُّرِ بها، ومِن ذلك أنَّه كان يَحرِصُ بعد كلِّ رحلةٍ إغاثيَّةٍ إلى إفريقيا أنْ يَجلِسَ بصُحبَتِهم ويَعرِضَ عليهم شريطَ الرحلةِ؛ لِيَرَوْا بأعيُنِهم كيف يعيشُ الفقراءُ بملابسِهم البالية، وبيوتِهم الطينيَّةِ، فيَستشعِرُوا نعمةَ اللهِ عليهم، كما قال النبيُّ ﷺ: «انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُم؛ فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ»(١٠).

كان حريصًا على **إيقاظِ جميعِ أبنائِهِ وبناتِهِ لصلاةِ الفجرِ بنفسِهِ**، منذُ بدايةِ فرضِ الصلاةِ عليهم، واستمَرَّ على هذا الفعل حتى كَبِرُوا وتزَوَّجُوا، وظلَّ يَتَّصِلُ ببناتِهِ وأبنائِهِ وأحفادِه، مُوقِظًا لهم لصلاةِ الفجرِ بالهاتفِ، اتصالًا جماعيًّا، حتى دَخَلَ العنايةَ المُرَكَّزةَ -رحمه الله- ممتثلًا قولَه تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [مريم:١٣٢].

- واليومَ نرى أبناءَه مِن طلبةِ العلمِ، ومِن المُتميِّزينَ، والخاتمينَ لحفظِ القرآنِ الكريمِ، أصحابَ خُلُقٍ والتزامٍ، نسألُ اللهَ أنْ يَجعَلَهُم تاجَ الوقارِ لوالديهم في جَنَّاتِ النَّعيمِ.

مرضُه ووفاتُه:

- عَرَفَ الدكتورُ بمرضِهِ «التليُّفِ الرِّئَويِّ» قبلَ سنواتٍ، وحاوَلَ علاجَه في الكُويتِ، وفي بعضِ الدولِ الأوروبيَّةِ، لكنْ دونَ جَدْوَى، حتى زار مُستشفى «كليفلاند» في «أبو ظبي»، وكان قد أُعجِبَ بعملِهم الطِّبيِّ في زيارتِهِ الأُولى في أمورِ المعالجاتِ الرِّئويَّةِ، وأمَّا في زيارتِه الثانيةِ لهم

(١٠) أخرجه مسلم (٢٩٣٦).

فلم يَتقبَّلْ توصيَتَهُم له بزراعةِ الرِّئةِ، **وكان يَمنَعُه مِن ذلك الجانبُ الشرعيُّ**؛ حيثُ لا يراهُ جائزًا -تورُّعًا- ثم لمَّا أصَرَّ عليه أبناؤُه وأهلُه، وكان ابنُه «د. محمدٌ» يُناقِشُه حولَ هذه المسألة، ويَعرِضُ عليه آراءَ المشايخِ، فكأنَّه قد لانَ رأيُه لذلك، فقَبِلَ الدخولَ ببرنامجِ الزراعةِ، لكنْ حالتُه ساءَتْ أكثرَ بعدَ ذلك، ولم يستطِعْ مُتابعةَ العلاجِ، فوافَتْهُ المَنيَّةُ.

- تَوَفَّاه اللهُ تعالى يومَ الأحدِ، خلالَ رحلةِ علاجِهِ في «أبو ظبي» بدولةِ الإمارات، ٢٧ مِن شعبانَ ١٤٤٧هـ، الموافق ١٥ مِن فبراير ٢٠٢٦م، عن عمرٍ ناهز الـ ٦٧ عامًا، ودُفِنَ يومَ الثلاثاءِ بعدَ صلاةِ العصرِ في «مقبرةِ الصليبخات» بدولة الكُويتِ.
- وقد نعاه عددٌ مِن الهيئاتِ العلميَّةِ والدعويَّةِ، على رأسِهم «جامعةُ الكُويتِ»، و«كليَّةُ الشريعةِ والدراساتِ الإسلاميَّةِ»، و«نادي الاقتصادِ» بالكلية، و«جمعيَّةُ إحياءِ التراثِ الإسلاميِّ» التي خَصَّصَتْ مَلَفًّا في مجلَّتِها «الفرقان» عنه، وكذلك نعاه «بنك بوبيان» الذي كان أحدَ مُؤَسِّسي الهيئةِ الشرعيةِ فيه.
- كما كَتَبَ **مجموعةٌ مِن الدُّعاةِ الأفارقةِ** «مِن آل السوق» -وفقهم الله وأثابهم- بعضَ القصائدِ الجميلةِ، وأسموها «**مَراثي العِرفان**»، وجُلُّهم مِن الطُّلَّابِ الذين تخرَّجُوا في المدارسِ والصروحِ التعليميَّةِ التي دَعَمَها الدكتورُ -رَحِمَه اللهُ- فكانت هذه القصائدُ تحمِلُ معنى الوفاءِ والعرفانِ له، **فحاولتُ انتقاءَ بعضِ أبياتها**.

يقولُ أحدُهم:

أَيَـا بَـحْـرَ الـنَّـدَى قَـدْ كُـنْـتَ حَقًّا ... كَرِيمًا، فَـاضِـلًا، ضَخْمَ الدَّسِيعَهْ
وَقَـدْ شَـيَّدْتَ لِلخَيْرَاتِ صَرْحًا ... طُـوَالًا ذَا بِنَايَـاتٍ بَدِيعَـهْ
إِخَـالُ بِأَنَّـهُ مَـا ثَـمَّ قَصْدٌ ... سِوَى مَا كَانَ مِنْ أَعْلَا الشَّرِيعَهْ
بِتَشْيِيدِ الجَوَامِـعِ وَابْتِنَـاءِ ... مَجَامِـعَ ذَاتِ أَسْـوارٍ رَفِيعَـهْ
حَفِظْتَ بِهَا خَلَائِقَ لَيْسَ يُحْصِ ... لَهَـا عَـدًّا سِـوَى رَبِّ البَدِيعَهْ
وَآوَيْـتَ الأَرَامِـلَ وَاليَتَامَـى ... وَكُنْـتَ رَبِيعَهَـا يَـا ابْنَ الرَّبِيعَهْ
فَكَـمْ نُـورٍ أَذَاعَ! وَكَـمْ دُعَاةٍ ... دُعَـاةٌ لِلهُـدَى كَانُـوا صَنِيعَهْ
وَكَـمْ كَـانَتْ سُعُودُ يَـدَيْ سُعُودٍ ... سُعُـودًا لِلمَرَاضِـعِ وَالرَّضِيعَـهْ

ويقولُ آخَرُ:

هُوَ سَعْدٌ، كَمْ أَسْعَدَ النَّاسَ خَيْرًا! هَـوُ فَـرْدٌ كَـالجَـمْـعِ، فَـهْـوَ سُـعُـودُ
كَـانَ رَمْـزَ العَطَا، وَهَـلْ رِيـتَ بَحْرًا مَثـلَ فِـي فِعَـالِ خَيْـر شَـرُودُ
يَـا هَنِيئًـا لَـهُ بِخِدْمَـةِ دِينٍ بُـورِكَ السَّـعْيُ سَعْيُهُ وَالـجُـهُـودُ
كَـانَ حَيًّا مِـنْ ذِكْـرِهِ العِطْرُ فَوْحًا وَالمَنَـارَاتُ وَالـدُّرُوسُ شُهُـودُ
قَـدْ رَأَيْـنَـاهُ خَـائِضَ الـوَحْـلِ يَبْغِي أَجْـرَ رَبٍّ هُـوَ الرَّحِيمُ الـوَدُودُ
وَعَلِمْنَـاهُ مُنْفِقًـا بِسَخَـاءٍ يُطْعِـمُ الخَلْـقَ وَالجِيَاعُ حُشُودُ
عَـرَفَ الـدَّارَ فَابْتَنَاهَـا بِخَيْرٍ فَهُنَـاكَ الهَنَـا، وُجُـودٌ، وَجُـودُ
بَـذَلَ الجُهْـدَ وَالنَّفِيـسَ رَجَـاءً عِنْـدَ رَبِّـي لِلمُحْسِنِينَ وُعُـودُ

ويقول ثالث:

فَـقَـدَهُ المَـحَـلُّ فِـي رُبُـوعٍ تَحَلَّتْ بِرَبِيـعٍ مِمَّـا يُفِيـدُ سُعُـودُ
حَمِـدَتْ سَعْيَـكَ البِلَادُ فَفِيهَا أَثَـرٌ شَاهِـدٌ وَفِيهَا شُهُـودُ
جُـدْتَ بِالخَيْـرِ لِلْيَتَامَى ابْتِغَاءً لِـرِضَـى مَـنْ بِـهِ يَـقُـومُ الـوُجُـودُ
لَـمْ يَـذُوقُـوا مِـنْ قَـبْلِ فَـقْـدِكَ يُتْمًا فَفَدَتْـكَ آبَاؤُهُـمُ وَالجُـدُودُ
كَـمْ جُمُـوعٍ أَغَثْتَهَا فِي لُجُوءٍ أَوْ نُـزُوحٍ إِلَـى الـهَـلَاكِ يَقُـودُ
وَلَكَـمْ قَـرْيَـةٍ أَتَـاهَـا دُعَـاةٌ يَنْشُرُونَ الهُـدَى وَمِنْـكَ الوُفُودُ
وَلَكَـمْ مَرْكَـزٍ عَلَى الخَيْرِ يُبْنَى لَـكَ دَعْـمٌ لَـهُ وَأَنْـتَ العَمُـودُ
وَلَكَـمْ طَالِـبٍ وَسَـاعٍ لِعِلْمٍ أَوْقَفْتَـهُ حَـوَاجِـزُ وَسُـدُودُ

ويقولُ الرابعُ:

سُعُـودٌ سَعِيدٌ يَـعْـرِفُ الكُلُّ قَـدْرَهُ وَيَـغْـرِفُ مِـنْ جَـدْوَاهُ بِيضٌ وَسُـودُ
سَقَى اللهُ عَـهْـدًا كَـانَ فِيهِ سَحَابَةً تَفِيـضُ نَـوَالًا وَالعِبَادُ شُهُـودُ
حَلِيـمٌ إِذَا جَـارَ الزَّمَانُ وَصَرْفُهُ وَشَـهْـمٌ بِسَاحَـاتِ الـكِـرَامِ وَحِيدُ

سُعُودٌ كَوَابِلٍ عَمَّمَ الأَرْضَ صَوْبُهُ ... فَـلَا بَلْـدَةٍ إِلَّا عَلَيْهَا يَجُـودُ
سُـعُـودٌ إِمَـامُ المُحْسِنِينَ بِعَصْرِهِ ... وَمَجْـدٌ وَفَضْـلٌ وَالبِنَـاءُ وُجُـودُ
أَلَا نَـوَّرَ الرَّحْمَنُ رَبِّـي ضَرِيحَهُ ... وَبَتَـوَّأَهُ الحُسْـنَى إِلَـــهٌ وَدُودُ
كَرِيمُ السَّجَايَا لَمْ يَخِبْ فِيهِ سَائِلٌ ... وَالجُـودُ مِنْـهُ طَـارِفٌ وَتَلِيدُ
بَكَتْـكَ مَسَاجِـدُ بَنَيْتَ مَنَارَهَا ... فَفِي كُـلِّ رُكْـنٍ دَمْـعَةٌ وَسُـجُودُ

ونَختِمُ بقولِ أحدِهِم:

كَـمْ أَمْـطَـرَ الـقَـارَّةَ السَّمْرَا بِوَابِلِهِ ... مِـنْ دَعْـــوَةٍ وَعَـطَـاءٍ غَيْرِ مُنْقَطِعِ
يَـدْعُـو إِلَـى اللهِ بِـالأَقْـوَالِ وَافَقَهَا ... أَفْعَالُهُ، وَكَـذَا الإِخْـلَاصَ لَـمْ يَدَعِ
خَرَجْتَ مِنْ ضِيقِ دُنْيَا قَاصِدًا سَعَةً ... فِي جَنَّةِ الخُلْدِ عِنْدَ اللهِ ذِي الوُسْعِ

ورجاؤُنا باللهِ كبيرٌ أنْ يَرحَمَ عبدَه سعودًا، ويتجاوَزَ عنه، فعنِ ابنِ عباسٍ -رضي الله عنهما- قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جِنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ**»(١١).

لقد غاب شخصُه، لكنَّ آثارَه العلميَّةَ والتربويَّةَ باقيةٌ، تشهَدُ له، وتلك سُنَّةُ اللهِ في العلماءِ الصادقينَ، تمضي الأجسادُ وتبقى الأعمالُ حَيَّةً في الناسِ.

❁❁❁

مِن آرائِهِ وتوجهاتِهِ في المعاملاتِ الماليَّة المعاصِرةِ:

عَقَدَ الراحلُ -رحمه الله- العديدَ مِن المحاضراتِ، وشارَكَ بعِدَّةِ لقاءاتٍ، تُعَبِّرُ عن توجُّهاتِهِ المتعلِّقةِ بالمعاملاتِ الماليَّةِ المعاصِرةِ، ومدى قُربِها وبُعدِها عن أحكامِ الشرعِ الحَنيفِ، مع نشرِه لرسالَتَيهِ -الماجستيرِ والدكتوراه- في هذا الشأنِ، اللتينِ تُظهِرانِ دِقَّتَه في الطرحِ، والعُمقَ في فهمِ قضايا الاقتصادِ الإسلاميِّ، مع أسلوبٍ سهلٍ قريبٍ، يَجمَعُ بين الرصانةِ والوضوحِ.

(١١) أخرجه مسلم (٩٤٨).

- **فقد أوضَحَ** في إحدى محاضراتِهِ[١٢] أسبابَ وجودِ الاقتصادِ الإسلاميِّ، ومنه الابتعادُ عن الرِّبا «الفوائد»، لحِكَمٍ شرعيَّةٍ واقتصاديَّةٍ.

فمِن الناحيةِ الشرعيَّةِ: قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩] فعَدَّه سبحانه مِن أكبرِ الكبائرِ، ومحاربةً له عزَّ وجلَّ، ويقولُ الرسولُ ﷺ: «**دِرْهَمُ رِبًا يَأْكُلُهُ الرَّجُلُ -وَهُوَ يَعْلَمُ- أَشَدُّ مِنْ سِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ زَنْيَةً**»[١٣]، وهذا يدلُّ على خَطَرِه الكبيرِ.

- وأمَّا مِن الناحيةِ الاقتصاديَّةِ: فقد **حَذَّرَ مِن خَطَرِه حتى أكابرُ الاقتصاديِّينَ الغربيِّينَ**، ودَعَوْا إلى تقليلِه وإلغاءِ الفوائدِ، فهذا «**كينز**» -ويسمونه أبو الاقتصاد- يقولُ: المجتمعُ السَّويُّ الذي يعيشُ في ظلِّ اقتصادٍ لا تَسودُه الفائدةُ.

ويقولُ في كتابه «النظريةُ العامَّةُ للتوظيفِ والفائدةِ والمالِ»: تخفيضُ الفائدةِ إلى حَدِّ الصفرِ يُؤَدِّي إلى التوظيفِ الكاملِ في المجتمَعِ. فتَنعَدِمُ البطالةُ تقريبًا.

ويقولُ «**كيوري هارا**»: إذا وَصَلَتِ الفائدةُ مُعَدَّلَ الصفرِ يُؤَدِّي ذلك إلى نُمُوٍّ الاستثماراتِ في البلدِ نُمُوًّا كبيرًا جِدًّا.

وترى في وقتٍ قريبٍ قامتِ اليابانُ بتخفيضِ مُعَدَّلِ الفائدةِ حتى الصفرِ، وهذا يعني أن ذلك ليس ضَرْبًا مِن الخيال بل موجودٌ فعلًا.

ويقولُ «**هبلر**»: تبريرُ مُعَدَّلِ الفائدةِ ما زالَتْ تُثيرُ اعتراضاتٍ في علمِ الاقتصادِ أكثرَ مِن أيِّ نوعٍ مِن فروعِ الاقتصادِ.

ويقولُ «**آرثر كينجستون**» -أمامَ لجنةِ الأسعارِ عام ١٩٣٠م-: الفوائدُ هي لعنةٌ على الدنيا.

فهؤلاء كبراءُ الاقتصاديِّينَ الذين تُدَرَّسُ نظرياتُهم في العالَمِ، وفي الكليَّاتِ العالميَّةِ، هم أنفسهم الذين يُنادونَ بتخفيضِ مُعَدَّلِ الفائدةِ إلى الصفرِ؛ لِما ثَبَتَ لَدَيْهم مِن آثارِ الرِّبَا المُدَمِّرةِ على المجتمَعِ.

- **وفي نهايةِ المحاضَرةِ عُرِضَت عليه شُبهةَ مَن يقولُ: إنَّ البنوكَ الإسلاميَّةَ حاليًا تتعامَلُ في كثيرٍ مِن المعاملاتِ الرِّبَويةِ، فهي شَبيهةٌ بالبنوكِ الرِّبَويَّةِ التقليديَّةِ!**

فأجابَ عنها قائلًا: حقيقةً يقعُ كثيرٌ مِن الناسِ في هذا الإشكالِ، فلا يستوي الإنسانُ الذي يتعامَلُ

(١٢) وهي بعنوان: «المعاملات المالية المعاصرة: الواقع والمأمول»، التي ألقيت سنة ٢٠١٨م في منطقة الفيحاء.
(١٣) أخرجه أحمد (٢٢٠٠٧)، والبزار (٣٣٨١)، وانظر السلسلة الصحيحة (١٠٣٣).

بالرِّبَا جَهارًا نهارًا، وآخَرُ يتعامَلُ مع البنكِ الإسلاميِّ، الذي يقعُ في الأخطاءِ أو بعضِ المعاملاتِ التي يَشوبُها الرِّبا، فهو يُحاوِلُ تطبيقَ الشريعةِ ولكنَّه يُخطئُ.

ولا شكَّ أنَّ البنوكَ الإسلاميَّةَ انحرَفَتْ في كثيرٍ مِن مُعاملاتِها، ولكنْ لا يعني هذا أنَّه يجوّزُ للمرءِ أنْ يُقارِنَ بينها وبين البنوكِ الرِّبَويَّةِ؛ لأنَّك تُقارِنُ بين الحلالِ والحرامِ!، فكونُها تقعُ في أخطاءٍ لا يُبَرِّرُ أنْ نَنتَقِلَ إلى المُحَرَّمِ الواضحِ، كمَن يختارُ إذا قُدِّمَ له طعامٌ بين القاذوراتِ، وبين الطَّعامِ الذي أصابه شيءٌ مِن القَذارةِ، هناك فرقٌ كبيرٌ.

فالتعاملُ مع البنوكِ الرِّبَويَّةِ ليست فقط معصيةً وكبيرةَ الرِّبَا، بل المُجاهَرةُ بالرِّبَا ونَشرُه والدفاعُ عنه وتسويقُه، هذا أعظَمُ وأشَدُّ.

فلا يجوزُ أنْ يتعاملَ المسلمُ مع البنوكِ الرِّبَويَّةِ نهائيًّا؛ تعبُّدًا لله، بل يتعاملُ مع البنوكِ الإسلاميَّةِ كذلك تعبُّدًا للهِ؛ لأنَّها الخيارُ الوحيدُ أمامَنا.

- **ثم أجابَ عن سؤال: ما حُكمُ التعامُلِ بالتوَرُّقِ حاليًّا في تطبيقِ البنوكِ الإسلاميَّةِ؟**

حُكمُ بَيْعِ التورُّقِ عند الجمهورِ على الجوازِ، ولكنْ ما يَحصُلُ في البنوكِ الإسلاميَّةِ -حاليًّا- حقيقةً **أقرَبُ إلى بَيْعِ العِينَةِ منه إلى بَيْعِ التَّوَرُّقِ**؛ لأنَّه عبارةٌ عن معاملاتٍ ورقيَّةٍ، وتوقيعٍ واستلامٍ مُباشِرٍ للأموالِ، وانتهى الأمرُ، فلا البضاعةُ عُيِّنَتْ، ولا البائعُ الأولُ عُرِفَ، ولا البائعُ الثاني عُرِفَ.

وأذكرُ أنِّي حَقَّقتُ مع أحدِ مندوبي البنوكِ لتعاملاتِ التوَرُّقِ، فقلتُ له: نحنُ لم نَرَ سوقًا للبضائعِ المُباعةِ، وأنتم كلَّ يومٍ تبيعونَ بعشراتِ الملايينِ مِن الإسمنتِ والحديدِ، فلم نُشاهِدْ أحدًا يَبيعُهُما بأقَلَّ مِن سعرِه، فعَدَمُ وُجودِ سوقٍ يَدُلُّ على أنَّ السِّلعةَ ترجعُ إلى البائعِ الأولِ، **وهذا هو بَيْعُ العِينَةِ**، فقال: نحنُ ليس لنا علاقةٌ أين تذهَبُ السِّلعةُ، فقد بِعْنَاها إلى بائعٍ آخَرَ.

فالبنكُ حقيقةً لا يريدُ أنْ يَعرِفَ هذا الشيءَ، فهذا البائعُ الآخَرُ قد يكونُ مُتَّصِلًا بالبائعِ الأولِ، فتَرجِعُ إليه، وهذا غالبًا ما يَحدُثُ؛ لأنَّ عدمَ وجودِ سوقٍ لبيعِ هذه السِّلَعِ يَدُلُّ على أنَّها تَرجِعُ إلى بائعِها الأوَّلِ، فلا يستفيدُ أحَدٌ منها.

فإذا أخَذتَ ببيعِ التورُّقِ بأنْ تشتريَ وتبيعَ فهذا ليس فيه ما يَمنَعُ، وأمَّا إذا أخَذتَه عن طريقِ البنوكِ الإسلاميَّةِ -بنفسِ الطريقةِ السابقةِ- فهذا أقرَبُ إلى بَيْعِ العِينَةِ منه إلى التوَرُّقِ، واللهُ تعالى أعلَمُ وأحكَمُ.

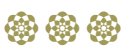

- **وأمَّا ما جاء في رسالتِهِ للماجستيرِ التي بعنوان: «تحوُّلُ المصرفِ الرِّبَوِيِّ إلى مَصرفٍ إسلاميٍّ ومُقتضياتُه»، فأحاولُ أنْ أُورِدَ أهَمَّ المفاهيم فيها باختصارٍ:**
  - **تطابقُ الفائدة والربا:** فالفائدةُ المصرفيَّةُ المعاصرةُ هي ذاتُها رِبَا الجاهليَّةِ المُحَرَّمُ شرعًا.
  - **التوصيفُ القانونيُّ للودائع:** تُعَدُّ الودائعُ المصرفيَّةُ في حقيقتِها «قروضًا» ممَّا يُوجِبُ تطبيقَ «أحكام القرض» عليها لا «أحكام الوديعة» الحقيقيَّةِ.
  - **الآثارُ الاقتصاديَّةُ للرِّبا:** يُعَدُّ نظامُ الفائدةِ المحرِّكَ الأساسيَّ للأزماتِ الاقتصاديَّةِ، مثل التضخُّمِ، والبطالةِ، وسوءِ توزيعِ الدَّخْلِ، وتركيزِ الثروةِ في أيدي قِلَّةٍ.
  - أنَّ **مواردَ المصرفِ الرِّبَوِيِّ ليست كلُّها مخالفةً** لأحكامِ الشريعةِ، بل تنقسمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

أ) مواردُ مُوافِقةٌ لأحكامِ الشريعةِ، وتشملُ: (رأسَ المالِ، الاحتياطياتِ، الودائعَ تحتَ الطلبِ ذاتَ الأُجرةِ).

ب) مواردُ مُخالِفةٌ لأحكامِ الشريعةِ، أو مكروهٌ التعاملُ بها ويُمكِنُ تعديلُها، وتشملُ: ١) الودائعَ تحتَ الطلبِ ذاتَ الفوائدِ البسيطةِ. ٢) الودائعَ تحتَ الطلبِ ذاتَ الخدماتِ المجانيَّةِ.

ج) مواردُ مُخالِفةٌ لأحكامِ الشريعةِ، يجبُ إلغاؤُها، وفي الشرعِ بَدَلٌ عنها، وتشمَلُ: ١) الودائعَ تحتَ الطلبِ ذاتَ الفوائدِ البسيطةِ. ٢) الودائعَ لِأَجَلٍ. ٣) الودائعَ بإشعارٍ سابقٍ. ٤) الودائعَ بإيصالٍ. ٥) ودائعَ التوفيرِ. ٦) الودائعَ المُستحدَثَةَ بجميعِ أشكالِها. ٧) الاقتراضَ مِن المصرفِ المركزيِّ بفائدةٍ. ٨) الاقتراضَ مِن المصارفِ التجاريةِ الأُخرى بفائدةٍ.

  - **البديلُ الاستثماريُّ:** يُعَدُّ «عقدُ المُضاربةِ» البديلَ الشرعيَّ الأساسيَّ لإعادة صياغةِ عقودِ المواردِ الماليَّةِ.
  - **الاستثماراتُ المشروعةُ:** تشمَلُ تأسيسَ المشاريعِ الإنتاجيةِ، تداولَ الأسهُمِ، صرفَ العُملاتِ (الحاضر فقط)، والتمويلَ بالتأجير.
  - **الأساليبُ الواجبُ إلغاؤُها:** خصمُ الأوراقِ التجاريةِ، القروضُ والسلفياتُ، وبيعُ العملاتِ الآجلِ أو بنظامِ المُقايَضةِ.
  - **البديلُ التمويليُّ:** يَصلُحُ «عقدُ شركةِ العِنانِ» ليكونَ بديلًا لـ «عقدِ القرضِ بفائدةٍ» في أغلبِ الأساليبِ الاستثماريَّةِ.
  - **تطويرُ الوظائفِ المركزيَّةِ:** يُمكِنُ للمصرفِ المركزيِّ ممارسةُ دورِ «الملجأ الأخيرِ»

للمصارِفِ عبرَ «عَقْدِ المُضارَبةِ» بدلًا مِن «القرضِ بفائدةٍ» المُحَرَّمِ.

- **التعاونُ البَيْنيُّ**: تعزيزُ التعامُلِ مع المصارفِ الإسلاميَّةِ الأُخرى عبرَ تبادُلِ المراسلةِ، الحساباتِ الجاريةِ، والتمويلِ المشتركِ للمشاريعِ الكُبرى.
- **هيئةُ الرقابةِ الشرعيَّةِ**: ضرورةُ استحداثِ هذه الوظيفةِ؛ لضمانِ سلامةِ الأعمالِ، وكَسْبِ ثقةِ الجمهورِ.
- **السنةُ الماليةُ**: يجبُ الاعتمادُ على السنةِ القمريَّةِ الهجريَّةِ؛ لضمانِ إخراجِ الزكاةِ في وقتِها.
- **الأموالُ المُكتَسَبةُ سابقًا**:

– مَن اكتسَبَ مالًا مُحَرَّمًا، وهو جاهلٌ بالحُكمِ، أو بتأويلٍ فقهيٍّ، لا يجبُ عليه إخراجُه بعدَ عِلمِهِ بالخطأ.

– مَن اكتسَبَ مالًا وهو عالمٌ بحُرمتِهِ، وجَبَ عليه إخراجُه.

- **الرِّبا المُستحَقُّ للمصرِفِ**: لا يجوزُ الانتفاعُ به، بل يُصرَفُ في المصالحِ العامَّةِ للمُسلمينَ.
- **الالتزاماتُ الرِّبَويَّةِ على المصرِفِ**: يجبُ إسقاطُ ما زاد عن رأسِ المالِ مِن رِبًا في العقودِ التي لم تُدفَعْ بعدُ.
- **لا ينبغي** للمصرِفِ المُحَوِّلِ أنْ يَترُكَ مالَه مِن «رِبًا» في ذِمَّةِ المُفسدينَ في الأرضِ، كما لا يجوزُ له أنْ يَنتَفِعَ بها، بل يُنفِقُها في المصالحِ العامَّةِ للمُسلمينَ.
- **إنَّ حُكمَ المصرِفِ المُحَوِّلِ إذا أُكرِهَ** على دفعِ التزاماتٍ رِبَويَّةٍ إلى خُصومِهِ هو حُكمُ المُضطَرِّ.
- **الآثارُ الإيجابيَّةُ**: يُتوَقَّعُ أنْ يُسهِمَ نجاحُ التحوُّلِ في ازدهارِ الاقتصادِ، الحَدِّ مِن التقليدِ الأعمى للحضارةِ الغربيَّةِ، وتقديمِ أدِلَّةٍ دامغةٍ على صلاحيةِ النظامِ الإسلاميِّ ورُشدِهِ.

❁❁❁

❑ **وأمَّا أبرزُ ما جاء في رسالته للدكتوراه التي بعنوان: «صِيَغُ التمويلِ الاستثماريِّ في الاقتصادِ الإسلاميِّ»، فأُحاوِلُ إيرادَ أهَمِّ المفاهيمِ فيها باختصارٍ:**

- **عَقدُ المُرابَحةِ (الأداةُ الأكثرُ شُيوعًا)**: تستحوذُ المُرابَحةُ على النصيبِ الأكبرِ مِن تمويلِ المؤسَّساتِ الماليَّةِ الإسلاميَّةِ بنسبة (٤٢.٥%)، ممَّا أدَّى إلى ضعفِ الدورِ التنمويِّ لهذه المؤسَّساتِ.

- يُرَجِّحُ البحثُ عدمَ جوازِ «**المُواعَدةِ المُلزِمةِ**» في المُرابَحةِ؛ لأنَّها في الحقيقةِ تَؤُولُ إلى عقدِ بيعٍ قبلَ امتلاكِ السِّلعةِ، وهو ما يُوقِعُ في محظورٍ شرعيٍّ.
- إنَّ **المذهبَ المالكيَّ** الذي استُنِدَ إليه في جوازِ الإلزامِ بالوعدِ قضاءً، لا يَرَى جوازَ بَيْعِ المُرابَحةِ، كما تُجريهِ المصارِفُ الإسلاميَّةُ اليومَ، سواءٌ كانت مُلزِمةً أو غيرَ مُلزِمةٍ، والأصلُ في المذهَبِ المالكيِّ هو عدمُ وُجوبِ الوفاءِ بالوعدِ.
- إنَّ إبرامَ «عَقدِ بيعِ المُرابَحةِ» بتعليقِهِ على شرطِ امتلاكِ البائعِ للبضاعةِ؛ لا يَمنَعُ مِن الوُقوعِ في المحظورِ الشرعيِّ، وهو (بيعُ ما ليس عندَكَ).
- إنَّ الأصلَ في البيعِ الآجلِ الجوازُ شرعًا، إلَّا ما انعقَدَ دونَ تحديدِ سعرٍ مُعَيَّنٍ للبيعِ، أو أجَلٍ مُحَدَّدٍ، أو كِلَيْهِما؛ وذلك لِجَهالَتَيْهِما؛ لأنَّ العلمَ بهما أحدُ شروطِ صِحَّةِ البيعِ.
- **عقدُ السَّلَمِ (الأداةُ المُعَطَّلةُ)**: يُعَدُّ بديلًا فعالًا عن «التمويلِ الرِّبَوِيِّ»، وله آثارٌ إيجابيَّةٌ في تقليلِ التضخُّمِ والبطالةِ، وزيادةِ النُّمُوِّ.
- **يَفتقِرُ الواقعُ المعاصرُ** لتطبيقاتٍ اقتصاديَّةٍ مُنتظِمةٍ للسَّلَمِ (مثل بورصاتِ بضائعَ خاصَّةٍ به)، وأسواقُ «البورصاتِ» الحالية لا تَنطبِقُ عليها شروطُ صِحَّةِ السَّلَمِ الشرعيَّةُ.
- إنَّ التمويلَ بصيغةِ «الإجارةِ التشغيليَّةِ» يَصلُحُ أنْ يكونَ بديلًا شرعيًّا للتمويلِ الرِّبَوِيِّ، في أغلبِ أوجُهِ الحياةِ الاقتصاديَّةِ وأنشطتِها.
- إنَّ أهَمَّ ما يُمَيِّزُ «الإجارةَ الماليَّةَ» عن «الإجارةِ التشغيليَّةِ» هو تحويلُ كلِّ مخاطرِ وعوائدِ ملكيَّةِ الأصولِ فِعليًّا مِن المُؤَجِّرِ إلى المستأجِرِ في الإجارةِ الماليَّةِ، سواءٌ تحوَّلَتْ مِلكيَّةُ الأصولِ فِعليًّا للمستأجِرِ في نهايةِ مُدَّةِ الإجارةِ أم لا.
- إنَّ أسلوبَ التمويلِ بصيغةِ «الإجارةِ الماليَّةِ» غيرُ جائزٍ شرعًا؛ وذلك لِما يَكتَنِفُ التعامُلَ به ومُقتَضاه مِن شُبَهٍ شرعيَّةٍ، تحولُ بينه وبين إمكانيَّةِ التعامُلِ به، إلا بإزالةِ ما يَختَلِجُه مِن محظوراتٍ شرعيَّةٍ، وبالتالي سيتحوَّلُ إلى عقدِ إجارةٍ تشغيليَّةٍ طويلِ الأجَلِ.
- إنَّ أهَمَّ ما يُمَيِّزُ «البيعَ الإيجاريَّ» (الإجارةَ المنتهيةَ بالتمليكِ)، عن «الإجارةِ الماليَّةِ» هو انتقالُ ملكيَّةِ الأصولِ المُؤَجَّرةِ مِن المُؤَجِّرِ إلى المستأجِرِ تلقائيًّا بمجرَّدِ سدادِ آخِرِ قسطٍ مِن أقساطِ الأُجرةِ، سواءٌ أعلنَ المستأجِرُ عن رغبتِهِ في شرائها أو لم يُعلِنْ، في نهايةِ مُدَّةِ عقدِ البيعِ الإيجاريِّ.

- إنَّ أسلوبَ التمويلِ بصيغة «البيعِ الإيجاريِّ» غيرُ جائزٍ شرعًا؛ وذلك لِما يَكتَنِفُ التعامُلَ به ومُقتَضاه مِن شُبَهٍ شرعيَّةٍ، تحولُ بينه وبين إمكانيَّةِ إباحةِ التعامُلِ به، إلا بإزالةِ ما يَختَلِجُه مِن محظوراتٍ شرعيَّةٍ، وبالتالي سيتحوَّلُ إلى «عقدِ بيعٍ بالتقسيطِ».
- **عقودُ المشارَكةِ والمُضارَبةِ (البديلُ الأصيلُ)**: تُعَدُّ «**المُشارَكةُ**» هي الأقرَبُ لروحِ الاقتصادِ الإسلاميِّ، ورغم جوازِ تطبيقاتِها المُعاصِرةِ، إلَّا أنَّ نِسبَتَها لا تزالُ مُتدنيَّةً (نحو ٢١%) مُقارَنةً بالمُرابَحةِ.
- يُؤَكِّدُ البحثُ صلاحيَةَ المُضارَبةِ والمُشارَكةِ لتمويلِ شَتَّى القطاعاتِ (تجارةٍ، زراعةٍ، صناعةٍ) وتغطيةِ العجزِ الماليِّ.
- إنَّ التمويلَ بصِيَغِ عقودِ المشاركاتِ ما زال صالحًا لأنْ يكونَ بديلًا لجميعِ أشكالِ «التمويلِ الرِّبَوِيِّ»، وفي جميعِ المجالاتِ الاقتصاديَّةِ.
- إنَّ شركاتِ «الوُجوهِ» و«الأبدانِ» و«المُفاوَضةِ» أصبحَتْ في هذا الزمانِ مِن الشركاتِ التي يَندُرُ وُجودُها في الساحةِ الاقتصاديَّةِ، إنْ لم تَكُنْ معدومةً.
- إنَّ صيغةَ شركاتِ «الوُجوهِ» و«الأبدانِ» لا تَصلُحُ لأنْ تكونَ أحدَ أساليبِ التمويلِ الاستثماريِّ.
- **بيئةُ العملِ**: تعمَلُ المؤسَّساتُ الإسلاميَّةُ في وسطِ أنظمةٍ رِبَوِيَّةٍ، وقوانينَ وضعيَّةٍ مُتحيِّزةٍ، ممَّا يَجعَلُ نتائجَ تجربتِها الحاليَّةِ غيرَ دقيقةٍ، ولا تُعَبِّرُ عن حقيقةِ الاقتصادِ الإسلاميِّ الكاملةِ.
- **التحايُلُ الشرعيُّ**: يُحَذِّرُ البحثُ مِن الاعتمادِ على «المخارجِ الشرعيَّةِ» الصوريَّةِ، أو التحايُلِ على أحكامِ الشرعِ؛ لتمريرِ عقودٍ هي في جَوْهَرِها رِبَوِيَّةٌ.
- **تمويلُ العجزِ**: يُمكِنُ تغطيةُ العجزِ الماليِّ الحكوميِّ والدوليِّ عبرَ «المشاركةِ بالأسهُمِ» أو «صُكوكِ السَّلَمِ»، وتغطيةُ عجزِ الأفرادِ عبرَ «الوكالةِ» أو «الاسترجاعِ بالمشارَكةِ في التأجيرِ».
- **كما أوصى البحثُ** أنْ يَتبَنَّى الباحثونَ في الاقتصادِ الإسلاميِّ إستراتيجيَّةَ خوضِ الموضوعاتِ الساخنةِ على الساحةِ الاقتصاديَّةِ مِن ناحيةٍ، ومِن ناحيةٍ أُخرى اتِّباعِ منهجٍ علميٍّ رصينٍ في طَرْقِ الموضوعاتِ، وعدمِ السيرِ على منهجِ تخَطِّي الحواجزِ؛ لأنَّ مصيرَه الرجوعُ إلى حيثُ بَدَأَ.
- **والوصيةُ** لأصحابِ القرارِ في الدولِ الإسلاميَّةِ أنْ يَتَّقُوا اللهَ فيما استرعاهُم اللهُ حِفْظَه، وأنْ يَتَلَمَّسُوا الطريقَ إلى الإصلاحِ الاقتصاديِّ وِفقًا للنظامِ الإسلاميِّ، في جميعِ أجهزةِ الدولةِ، ومُؤَسَّساتِها، مِن قبلِ أنْ يأتيَ يومٌ لا بَيْعٌ فيه ولا خُلَّةٌ ولا شَفاعةٌ.